تمهيد

المتنبي شاعر كبير من شعراء المائة الرابعة الهجرية واسمه أحمد بن الحسين وكنيته أبو الطيّب ولقبه المتنبي وذكر اسمه فى قوله من قصيدة

جمعت بين جسم (أحمد) والسقـــم وبين الجفون والتسهيد

وذكر عبد الجليل بن وهبون الشاعر الأندلسى اسم أبيه فى قوله حين سمع المعتمد بن عباد ملك قرطبه واشبيلية يتمثل بشعر معجباً به فقال ارتجالا:

لئن جاد شعر ابن (الحسين) فانما * بجود العطايا واللهى تفتح اللها(١)

تنبأ عجباً بالقريض ولو درى * أنك تروى شعره لتأها (٢)

والمتنبي أحد أفذاذ الزمان وسيد شعراء عصره وأمام من جاء بعد وفيه يقول من أنصفه(٣)

مارأى النـاس ثانى المتنبي * أى ثانٍ يرى لبكر الزمان

هو فى شعره نبيٌّ ولكن * ظهرت معجزاته فى المعـانى

مَوْلِـدُه

ولد فى الكوفة سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) من أبوين فقيرين فبلغ بهمته وعبقريته اسمى مراتب الشهرة وقد حققت الأيام ظنه . فيما قاله عن نفسه :

وماالدهر الاّ من رواة قصائدى * إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

فسـار به من لايسـير مشمرّا * وغنّى به من لايغنى مُغردا

فطوت ذكر كثير من عظماء الرجال وأبقت اسم المتنبي خالداً على صفحاتها

حياة المتنبي بين الألم والأمـل

مااستطعت أن اعرف المتنبي من هاتين الناحيتين الا بعد أن قسمت حياته الى أربعـة أطوار

---

١ اللهى بالضم العطايا واحدها لهوه ـ وبالفتح منتهى سقف الفم يريد أن العطايا تبعث على اجادة المدح

٢ القريض الشعر (٣) المظفر بن على الشاعر

الأول ـ طور بؤسه . وذلك من مولده الى أن لحق بسيف الدولة على بن حمدان سنة ٣٣٧ هجرية (٩٤٨ م)

الثانى ـ طور سعته . وهو مدة اتصاله بسيف الدولة الى أن فارقه سنة ٣٤٦ (٩٥٧ م)

الثالث ـ طور رجائه . وهو مدة اتصاله بكافور الاخشيد ملك مصر الى أن رحل عنه سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م)

الرابع ـ طور يأسه . وهو من وقت خروجه من مصر الى أن قتل سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م)

بؤس المتنبى وأسبابه

« استغرق البؤس الذى لزم المتنبى . زهرة شبابه . فانه ولد من أب فقير معدم يبيع الماء فى الكوفة « سقا » وتعلم فى المكتب ثم رحل به أبوه الى الشام لطلب العلم مع قلة ذات يده ثم مات أبوه وعدم المنفق . وفيه مدح الامراء وذاق لوعة الحسد والكيد من الوشاة ومرارة الجفاء والحرمان من الممدوحين فهجر مجالسهم وأخذ يتلمس الطريق التى يصل منها الى منزلة يستطيع عندها أن ينتقم لنفسه

واليك بيان ذلك

ظهرت نجابة المتنبى وهو فى المكتب (١) وصار يحفظ كل مايسمع من شعر : أونثر : وقال الشعر قبل أن يحسن القراءة والكتابة ، ولما رأى أبوه ذلك منه كان له مثال الأب الحكيم فلم يكلفه احتراف مهنته بل رحل به الى الشام فتلقى العلم والأدب عن علمائها ثم دخل البادية وأخذ لغة العرب عن فصحائها فأصبح بذلك نابغة زمانه وجاد نظمه و نثره ، واشتهر بين الأدباء أمره ، فلما أحس من نفسه بأنه جاء بايات البلاغة ، ومعجزات المعانى ، حدثته نفسه بأن ليس فى هذا العالم مثله وان هذه الكائنات لاشىء اذا قيست به فقال معجباً بنفسه :

---

(١) من ترجمته التى فى ديوانه بتصرف كثير

أى محلٍ ارتقى * أى عظيم اتقى
وكل ماخلق اللـــهُ وما لم يخلق
محتقر فى همتى * كشعرة فى مفرق

ثم أراد أن يعرّف الناس بنفسه كما ظنها فادعى النبوة فى بادية السماوة فتبعه بعض جهال أهلها وعلم به صاحب حمص فقاتله واعتقله ثم استتابه فتاب وعادمن هذه المغامرة بلقب (المتنبي)واظنه لم يدع النبوة لغير الشهرة وحب الرياسة لقوله فى قصيدة للحاكم وهو فى الاعتقال يعتذر

وكن فارقاً بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشأوٍ بعيد

أى أن ماأردته من دعوتى غير مافهمه الناس منها . وبعد اطلاقه من السجن بُعد صيته وأخذ يمدح الأمراء والعظماء رغبة فى نيل جوائزهم فوجد منهم بعض العطف عليه ثم انعكس ذلك العطف إلى كره وابعاد . وأصبح إذا بش هذا فى وجهه فى الصباح قطب له فى المساء وإذا ظفر بود أحدانقلب الود بعد قليل إلى جفاء فرقت حاله وتكدر صفاء حياته وصار يتلمس للرزق بشعره شتى الوسائل : فلا يعود بطائل

وأول ألم أصابه بعد ألم الفاقة اعتقاله حين أدعى النبوة فوضع فى السجن مكبلاً بالحديد . ويظهر لك مدى ألمه فى ذلك من قوله مستغيثاً بالحاكم ليعفو عنه

دعوتك عند انقطاع الرجاء * والموت منى كحبل الوريد
دعوتك لما برانى البـــلاء * واوهن رجلىّ ثقل الحديد

ثم اشتد به البؤس بعد ذلك فقال يشكو سوء حظه وتقلبه فى البلاد طلباً لرزقه بغير جدوى :

ضاق صدرى وطال فى طلب الرز * ق قيامى وقلّ عنه قعودى
ابداً أقطع البـــلاد ونجمى * فى نحوس وهمتى فى سعود

وقال لمن عجب لبؤسه مع جودة شعره ولامه على تقصيره فى السعى

ليس التعلل بالآمال من اربى * ولا القناعة بالاقلال من شيمى
ولا أظن بنات الدهر تتركنى * حتى تسد عليها طرقها همى

لم الليالى الى اخنت على جدتى * برقة الحال واعذرنى ولاتلم

نظر المتنبى الى نفسه الكبيرة وماتجلى عليها من الاباء والشمم فقال البيت الأول . ثم التفت الى الدهر يهدده بمقابلة الشر بالشر ويحذره نفسه فقال البيت الثانى . ثم نظر الى ظاهره ومخالفته لما يعجب الناس من حسن البزة فقال البيت الثالث . كأنه يقول فيه لمحدثه انى لاأملك ظواهرى ولا سلطان لى على ماينتابها من التغيير فلا تلمنى على شىء ليس أمره فى يدى . ثم ذكر له بعد ذلك سبب رقة حاله فقال

أرى أناساً ومحصولى على غنم * وذكر جود ومحصولى على كلم

أى يسمع بالاجواد فيمدحهم فيعود غنياً بالوعود فقيراً من النقود وقال يصف كثرة تنقله وعدم استقراره فى مكان وهو من اعظم مظاهر بؤسه :

ألفت ترحُّلى وجعلت أرضى * قَتُودى والغرَيْرِىَّ الجُلالا(١)

فما حاولت فى أرض مقاماً * ولا أزمعت عن أرض زوالا

على قلق كأن الريح تحتى * أوجهها جنوباً أو شمالا

وقال لسعيد بن عبدالله يشكو ماأصابه فى سبيل الوصول اليه وما لحقه من الألم رجاء خيره :

حتى وصلت بنفس مات أكثرها * وليتنى عشت منها بالذى فضلا

أرجو نداك ولاأخشى المطال به * يامن إذا وهب الدنيا فتدفعلا

وأصدق الشواهد على مدى مابلغه من خيبة الأمل بشعره قوله يستنهض همته ويحثها على طلب الرزق بغير الشعر وهو من أنفس القول فى الحض على العمل : —

الى كم ذا التخلف والتوانى * وكم هذا التمادى فى التمادى

وشغل النفس عن طلب المعالى * ببيع الشعر فى سوق الكساد

وما ماضى الشباب بمسترد * ولا يوم يمر بمستعاد

وقوله ويدلك البيت الأول على أن ثيابه كانت بالية والثانى على أنه كاد ينتحر من شدة البؤس

---

(١) القتود خشب الرحل والغريرى بعيره نسبة الى محل كريم يسمى غريراً يريد انه لكثرة تنقله جعل اقامته على ظهر بعيره والجلال الجليل

إلى أى حين أنت فى زىّ محرم * وحتى متى فى شقوة والى كم
وإلا تمت تحت السيوف مكرماً * تمت وتقاسى الذل غير مكرم
فثب واثقاً بالله وثبة ماجدٍ * يرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى الفم

فهذه الأبيات قالها المتنبى عن نفسه فى طور بؤسه وهى تكفى لتمثيل حاله فتريك نفساً عالية ، فى ثياب بالية ، وشاعراً مجيداً ، أطرحه الناس بعيداً ، مع انك لا تجد شعراً أبهج وأورع ، ولا قولا أحكم وأجمع ، ولا مدحاً أبلغ وأمتع ، ولا وصفاً أسهب وأبدع من شعره . وانك لتعجب حين ترى أن هذا الشعر النفيس فى تلك النفس الكبيرة كان سبب شقاء قائله وعلة آلامه فى حياته وانه أخذ بناصيته بعد ذلك إلى حتفه . ولكن أتدرى ما السبب فى ذلك ؟ فحصت شعره عن العلة فيما أصابه فوجدت ذلك يرجع إلى أربعة أمور

أولها ـ أن المتنبى نشأ مبغضاً للناس جميعاً سىء الظن بهم

الثانى ـ انه كان شديد الكبرياء فخوراً بنفسه محقراً لما عداها

الثالث ـ انه كان إذا هجا أفحش فى الهجاء

الرابع ـ انه كان اذا مدح أميراً عرّض فى مدحه بذم الناس جميعاً أو ذم من مدحهم قبله

فهذه الخلال الأربع حملت الناس على البعد عنه والنفور منه وجعلته هدفاً لسهام حساده . وحالت بينه وبين مراده . واليك بيانها

(١) كراهة المتنبى للناس

ظهرت هذه الغريزة فى المتنبى وهو صبى فى المكتب حين قال له رجل ما أحسن هذه الوفرة لشعرات فى رأسه فقال مرتجلا

لا تحسن الوفرة حتى ترى * منشورة الضفرين يوم القتال
على فتىً معتقل صعدة * يعلها من كل وافى السبال (١)

فكان رأيه فى الناس قبل أن يخالطهم . ان يكون فى حرب ووفرته منشورة على كتفيه وفى يده رمح يطعن به من الناس كل ذى شاربين كبيرين

---

(١) الصعدة ـ الرمح القصير ويعلها ـ يسقيها شيئاً فشيئاً والسبال ـ الشاربان

وإذا قرأت قوله عن نفسه

وقيل عدوت على العالمين * بين ولادى وبين القعود

أدركت أن الناس اتهموه بالعداوة لهم منذ طفولته وقالوا ان هذا الشاعر ولد عدوًا للعالم . وقد صدقوا فى هذا الاتهام فانه لما كبر أبان لهم رأيه فيهم بقوله

ودهر ناسه ناس صغار * وان كانت لهم جثث ضخام

وما أنا منهم والعيش فيهم * ولكن معدن الذهب الرغام (١)

أرانب غير انهم ملوك * مفتحة عيونهم نيام

فذم الناس جميعاً سوى نفسه . وليست هذه الأبيات قائمة بنفسها حتى يقال انه يفتخر أو يتألم بل يقولها فى قصيدة يمدح بها المغيث بن على وهو من امراء ذلك العصر فلما أراد الدخول الى ذكر الممدح عاد الى ذم الناس ثانية وأخرجه من بينهم كما أخرج نفسه أولاً فقال

ولم أر مثل جيرانى ومثلى * لمثلى عند مثلهم مقام

بأرض ما اشتهيت رأيت فيها * فليس يفوتها الا الكرام

بها الجبلان من صخر وفخر * انافا ذا المغيث وذا اللكام (٢)

وليست من مواطنه ولكن * يمر بها كما مر الغمام

ويقول فيهم زاعماً أنه أكلهم تجربة اذا كان غيره قد ذاقهم فقط :

اذا ما الناس جرّبهم لبيب * فانى قد أكلتهم وذاقا

فلم أر ودّهم الا خداعاً * ولم أر دينهم الا نفاقا (٣)

ثم يقول مستبيحاً اهلاكهم :

ومن عرف الأيام معرفتى بها * وبالناس روّى رمحه غير راحم

فليس بمرحوم إذا ظفروا به * ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

يريد أن من يقتل هؤلاء الناس بلا رحمة لا يعد ظالماً ، لأنهم إذا ظفروا به قتلوه بلا رحمة أيضاً . فاذا بدأهم هو بذلك فلا إثم عليه البتة

---

(١) الرغام ـ التراب يقول : أنا لست منهم واقامتى بينهم كالذهب الذى يوجد مختلطا بالتراب

(٢) يقول ان هذه البلاد فيها كل شىء الا الكرام (انافا) ارتفعا واللكام جبل عظيم فى الشام يمر بحماه وينتهى عند انطاكية . (٣) دينهم أى عادتهم (النفاق)

ثم قال واصفاً تفاوتهم فى النقائص :

أذم الى هـــذا الزمان أهيله * فاعلمهم فدم . وأحزمهم وغد(١)
وأكرمهم كلب . وأبصرهم عمٍ * وأسهدهم فهد . وأشجعهم قرد
ومن نكدالدنيا على الحرّ ان يرى * عدواً له ما من صداقته بد

يقول هذا فى قصيدة يمدح بها أميراً يسمى على بن سيار فذم الناس جميعاً لم يستثن منهم أحداً حتى ولا الممدوح وعدّ صداقته لهم من نكد الدنيا . ولعمرى أن الممدوح لو مدح فى هذه القصيدة بألف بيت لما غيرت فكره بأنه هو المقصود فى قوله : « عدواً له ما من صداقته بدٌ »

فهذا رأى المتنبى فى الناس وهذه عقيدته التى ينشرها بينهم ويذكرها مفصلة فى قصائده التى يمدح بها ملوكهم وهى أقطع الأدلة على بغضه لهم وأقوى أسباب بغضهم له

٢ ـ كبرياؤه وفخره بنفسه

اشتهر المتنبى بالكبرياء فى جميع حياته ووصف نفسه بأوصاف تدل على شدة كبريائه فمن ذلك قوله :

أنا الذى بين الالّه به الأقـــدار والمرء حيثما جعـــله
جوهرة تفرح الشراف بهـــا * وغصة لا تسيغها السفَلَة (٢)

يدعى أن الله أعطاه قوة فى القول فهو يصف الناس بما فيهم فيظهر مقدار كل منهم « يبرر بذلك ذمهم » وانه لا يقول فيهم الا الحق .

وقوله معجباً بنفسه :

إن أكن معجباً فعجب عجيب * لم يجـد فوق نفسه من مزيد

---

(١) الفدم العى الذى فى منطقة ثقل ، الوغد الخسيس من الناس ، أسهدهم أكثرهم سهداً ، الفهد حيوان كثير النوم ، القرد مشهور بشدة الخوف ويقصد المتنبى بذلك التهكم عليهم .

(٢) الشراف : الاشراف

أنا ترب الندى ورب القوافى * وسمام العدى وكيد الحسود (١)
أنا فى أمة تداركها اللـــه غريباً كصالح فى ثمـــود

يقول إن أكن معجباً بنفسى فأنا جدير بذلك لأنى لم أجد فوقها نفساً . ثم بيّن فى البيت الثانى منازله فى العالم وفى البيت الثالث سأل الله أن يهدى الامة الى الصواب فتعرف قدره وتؤمن برفعته عليها .

وقوله :

أنا صخرة الوادى اذا ما زوحمت * واذا نطقت فانى الجوزاء (٢)

أى لا يجسر أحد على مزاحمته لصلابته واذا تكلم فكلامه أمر لا يرد

وقوله :

إن ترمنى نكبات الدهر عن كثب * ترمى امرءاً غير رعديد ولا نكس

يريد أنه لا يبالى بالمصائب بل يقابلها بهمة تبددها . وحسبك من هـذا الباب قوله :

أمط عنك تشبيهى بمن وكأنه * فما أحد فوقى ولا أحد مثلى

أى لا تقل ما أشبه المتنبي بفلان أو كأنه فلان فليس فوق أحد بل ليس مثلى أحد . وقد مر بك قوله : « أى محل أرتقى »

فهذه الأقوال تدلك على مدى كبريائه وتمهد العذر لأعدائه وانى أرى أنه ما كان يلقى على أحد سلاماً ولا يرد السلام على أحد تكبراً وقد لامه بعض أصحابه على ذلك فقال يعتذر :

أنا عاتب لتعتبك * متعجب لتعجبك
اذ كنت حين لقيتنى * متوجعاً لتغيبك
فشغلت عن رد السلام * وكان شغلى عنك بك

---

(١) ترب أى ولد معه ، الندى . الكرم ، القوافى . الشعر ، والسهام . الذم . تداركها الله . دعا . ثمود . قوم صالح عليه السلام . ويقال ان الناس لما سمعوا هذا البيت قالوا (تنبأ) للاقراء به فلقب بالمتنبى من ثمة

(٢) الجوزاء : أحد البروج . عن كثب : عن قرب . والرعديد : الجبان والنكس الذى لا خير فيه

وهذا عذر أظنه لا ينطلى على أحد .

فهـذه مظاهر كبرياء المتنبى وهى لاتجعل له فى الناس محباً

٣ — فحشه فى الهجاء

يعجب البـاحث فى أخلاق المتنبى حين يراه مع علو نفسه وترفعه عن كثير من النقائص يفحش فى هجائه فيطعن فى الانساب ويقذف المحصنات ثم لايجد لذلك من باعث غير سوء ظنه بالناس وشدة بغضه لهم . وبمـا أن كتابى هذا لا يتناول المتنبى من هذه الناحية . فأنا أكتفى بايراد أمثلة قليلة من هجائه تأييداً للسبب فى نفور الناس منه .

فمن ذلك قوله فى صباه يهجو القاضى الذهبى :

لما انتسبت فكنت ابناً لغير أب(١) ٭ ثم اختـبرت فلم ترجع الى أدب
سميت بالذهبىّ اليوم تسمية ٭ مشتقة من ذهاب العقل لا الذهب
ملقب بك ما لقبت ويك به ٭ يا أيها اللقب الملقى على اللقب

فمثل هذا القذف المر تنفر منه نفس الحر

وقال فى قصيدة يمدح بها بدر بن عمار معرضاً بمن زعم أنه وشى به اليه :

وانهَ المشير علىّ فيك بضلة ٭ فالحر ممتحن بأولاد الزنا (٢)

ومثل هـذه الألفاظ لا تليق برجل تدنيه الملوك من مجالسهم وينشد شعره بين أيديهم

وهجا اسحاق بن كيغلغ على غير ذنب سوى أنه أعترضه أثناء سيره بالقرب من أرضه وطلب منه أن ينزل عنده ليمدحه فاعتذر المتنبى فلما فارقه هجاه بقصيدة مدح بها أبا العشائر وعرض فى الهجاء بأهل اسحاق تعريضاً لا يحسن ذكره لما اشتمل عليه من فحش القول وانمـا أذكر لك ما قاله فى هجاء اسحاق نفسه وهو :

---

(١) اى من سفاح

(٢) أنه : فعل أمر (بضلة) أى يقول فى صفتى غير صواب

وجفونه ما تستقر كأنهـــا * مطروقة أو فت فيها حصرم (١)
واذا أشار محدثاً بكأنه * قرد يقهقه أو عجوز تلطم
وتراه اصغر ما تراه ناطقاً * ويكون اكذب ما يكون ويقسم

وهذه القصيدة إذا جردت من الهجاء كانت من أنفس الشعر فانها جمعت فرائد الأمثال كقوله فيها :

لو كان يمكننى سفرت عن الصبا * فالشيب من قبل الأوان تلثم (٢)
ولقد رأيت الحادثات فلم أر * يققاً يميت ولا سواداً يعصم (٣)
والهم يخـــترم الجسيم نحافة * ويشيبُ ناصية الصبى ويهرم
ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله * وأخو الجهالة فى الشقاء منعم
والناس قد نبذوا الحفاظ فمطلقٌ * ينسى الذى يولى وآخر يندم (٤)
لا يخدعنك من عدو دمعـــه * وارحم شبابك من عدو ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى * حتى يراق على جوانبه الدم
يؤذى القليل من اللئام بطبعه * من لايقل كما يقل ويلؤم
والظلم من شيم النفوس فان تجد * ذا عفة فلعلة لايظـــلم
ومن البلية جهل من لايرعوى * عن غيه وخطاب من لايفهم
والذل يظهر فى الذليل مودة * واود منه لمن يود الأرقم
ومن العداوة ماينالك نفعه * ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

فانظر إلى هذه الدرر الفريدة كيف نظمها مع الخرز فى سلك واحد .

واعجب من ذلك أن إسحق هذا قتله غلمانه فلم يكتف المتنبى بموته بل هجاه ميتاً وهذا من اسوء ماجاء به . وإنى أذكر لك قوله فيه لخلوه من الفحش مع شدة إغراقه فى الهجاء :

---

(١) الحصرم . العنب قبل أن ينضج وهو كثير الحموضة
(٢) أى أن الشيب غطى وجه شبابه
(٣) اليقق : الابيض أى أن الشيب لا يسبب الموت والشعر الاسود لا يعصم منه
(٤) الحفاظ . المحافظة على الحقوق أى أن الناس تركوا مايجب عليهم نحو بعضهم

قالوا لنا مات أسحق فقلت لهم * هذا الدواء الذى يشفى من الحمق(١)
ان مات مات بلا فقدٍ ولا أسفٍ * أو عاش عاش بلا خلقٍ ولا خلق
منه تعلم عبـــد شق هامته * خون الصديق ودس الغدر فى الملق(٢)
وحلف الف يمينٍ غير صادقةٍ * مطرودةٍ ككعوب الرمح فى نسق(٣)
مازلت أعرفه قرداً بلا ذنبٍ * خلواً من البأس مملوءاً من النزق(٤)
كريشة فى مهب الريح ساقطة * لاتستقر على حال من القلق(٥)
تستغرق الكف فوديه ومنكبه * فتكتسى منه ريح الجورب العرق(٦)
فسائلوا قاتليه كيف مات لهم * موتاً من الضرب أو موتاً من الفرق(٧)
وأين موقع حد السيف من شبح * بغير جسم ولا رأسٍ ولا عنق
لولا التئام وشىء من مشابهة * لكان الأم طفل اف فى خرق(٨)

هذه أمثلة من هجاء المتنبى قبل اتصاله بسيف الدولة فلما اتصل به خفت وطأة لسانه لاتساع نعمته فى صحبته وبعد أن فارقه هجا كافوراً بعد مدحه وهجا ضبة العينى وعرض بأمه بقولٍ كان سبباً لقتله كما ستراه فى طور يأسه

٤ — ذم المتنبى من يمدحهم عند مدح غيرهم

هـذه عادة لم يأت المتنبى بأغرب منها ولم أرها لشاعر غيره وقد لزمته طبلة حياته فى جميع قصائده فما مدح أحداً إلا وفضله على جميع الناس وتفنن فى هذا المعنى تفنناً عجيباً وقد بينت لك جميع مارأيته له من هذا النوع لتطلع على قدرة هذا الشاعر وكيف يصوغ المعنى الواحد فى مظاهر كثيرة

قال فى قصيدة مدح بها محمد بن عبدالله الخطيب معرضاً بذم الناس وملوكهم :

---

(١) الحمق الجهل (٢) يقول أن العبد الذى قتله تعلم الخيانة منه (٣) كعب الرمح ، بين العقدتين (٤) النزق الخفة والطيش

(٥) القلق الاضطراب (٦) أى أنه إذا صفع أحاطت الكف بجانبى رأسه مع كتفيه لانه لاعنق له وتعود من لمسه رائحة نتنة (٧) الفرق الخوف (٨) يقول لولا وجود لئام كثيرين غيره يشبهونه لكان الأم الناس

وانما نحن فى جيل سواسية * شر على الحر من سقم على بدن (١)
حولى بكل مكان منهم خلقٍ * تخطى اذا قلت فى استفهامها بمن
ولا أعاشر من أملاكهم ملكاً * الا أحق بضرب الرأس من وثن

فأنت ترى أنه لم يستثن أحدا من الذم

ثم قال فى الحسن بن عبيد الله :

كريم لفظت الناس لما بلغته * كأنهمُ ماجف من زاد قادم (٢)
وكان سرورى لا يفى بندامتى * على تركه فى عمرىَ المتقادم

فأفرد الممدوح وذم الناس ومنهم ممدوحه الاول طبعاً

ثم قال فى على بن أحمد وكان شاعراً وعالماً :

دعانى اليك العلم والحلم والحجا * وهذا الكلام النظم والنائل النثر (٣)
وما قلت من شعرٍ تكاد بيوته * اذا كتبت يبيض من نورها الحبر
وجنبنى قرب السلاطين مقتها * وما يقتضينى من جماحها النسر

فمدحه وذم ملوك زمانه وجعل عذره لبعده عنهم ان النسور تطالبه برؤوسهم وهو لا يقدر على ذلك الآن ،

ثم قال فى على بن ابراهيم التنوخى :

أشرت أبا الحسين بمدح قوم * نزلت بهم فسرت بغير زاد
وظنونى مدحتهم قديماً * وأنت بما مدحتهمُ مرادى

يقول انه كان فرحاً بمدح من مدحهم قبله ولكن خرج من عندهم بغير زاد وانه لم يكن مادحاً لهم فى الواقع بل كان هو المقصود

ثم قال فى عبد الله بن يحيى :

بمن أضرب الامثال ثم أقيسه * اليك وأهل الدهر دونك والدهر

وفى أبى عبادة :-

لما وزنتك بالدنيا فملت بها * وبالورى قل عندى كثرة العدد

---

(١) الجيل الناس : سواسية متشابهون ولا تستفهم عنهم بمن هذا لانها خاصه بالعاقل وهم ليسوا كذلك
(٢) أى فضلة مابقى من الخبز مع القادم من السفر (٣) الحجا العقل والنائل العطاء

وفى بدر بن عمار :

ومثلك يابدر لايكون ولا * تصلح الا لمثلك الدول

وفيه مكرراً هذا المعنى أيضا :

سبقت السابقين فلا تجارى * وجاوزت القلوب فلا تعالى

وأقسم لو صلحت يمين شيء * لما صلح الأنام له شمالا

ثم قال فى على بن منصور :

أمهجن الكرماء والمذرى بهم * وتروك كل كريم قوم عاتبا

شادوا مناقبهم وشدت مناقباً * وجدت منقبهم بهن مثالبا

وقال فى عبد الواحد الكاتب ففضله على الملوك وغيرهم :

وزارك بى دون المملوك تحرج * اذا عن بحر لم يجز لى التيمم (١)

فعش لو فدى المملوك ربابنفسه * من الناس لم تفقد وفى الارض مسلم

فجعله سيداً للناس جميعاً وقال لو صح أن يفدى المملوك سيده بنفسه لظل المسلمون يفدونه بأنفسهم جيلاً بعد جيل حتى لايبقى على ظهر الأرض منهم أحد وهذا من غرائب المدح ، وقال فى أبى الفرج القاضى :

قصدتك والراجون قصدى اليهم * كثير ولكن ليس كالذنب الأنف

ولا الفضة البيضاء والتبر واحد * نفوعان للمكدى وبينهما صرف (٢)

ثم تغالى بعد ذلك فقال فى أبى شجاع محمد :

أمريد مثل محمد فى عصرنا * لاتبلنا بطلاب مالا يلحق

لم يخلق الرحمن مثل محمد * أحداً وظنى انه لايخلق

وفى على بن احمد الطائى :

ألا كل سمح غيرك اليوم باطل * وكل مديح فى سواك مضيع

ولا ثوب مجد غير ثوب ابن احمد * على أحد الا بلؤم مرقع

ثم قال فى جعفر بن كيغلغ :

---

(١) زارك بى أى زرتك — وعن . ظهر

(٢) التبر الذهب والمكدى المحتاج وصرف أى فضل يريد كلاهما نافع غير أن الذهب أكثر نفعاً كذلك أنت لى من الذين يرومون ذهابى اليهم

من قال لست بخير الناس كلهم * فجهله بك عند الناس عاذره
أوشك انك فرد فى زمانهم * بلا نظير فى روحى أخاطره

ثم قال فى المساور بن احمد :

ان القريض شجٍ بعطفى عائدٍ * من أن يكون سواك المدوح

وفى أحمد بن عمران

ذُكر الانام لنا فكان قصيدةً * كنت البديع الفرد من أبياتها

وفى على بن عساكر :

أرى الناس الظلام وأنت نور * وانى منهم لأليك عاش

وفى طاهر بن الحسين العلوى وخرج فيه عن حد الذوق :

ويحذى عرانين الملوك وانها * لفى قدميه فى اجل المراتب

هذه هى سنته فى مدح أمراء عصره وهى لاتجعل لهم ثقة بمدحه وان محافظته على هذه الخطة الغريبة تدفعنى الى الظن بانه كان اذا أراد مدح أمير وقف حائراً بين كبريائه وفاقته ، تلك تأمره ان لايمدح احداً من هذا العالم لانهم دونه منزلة ، وهذه تغريه بمدح الاكابر ليحصل منهم على رزقه ؛ فيوفق بين طلبيهما بان يثنى على الممدوح مداراةً لفاقه ويذم ماعداه ارضاءً لكبريائه .

وقد رأيت له فى هذا الباب اعجب مما تقدم برأيته شق عليه تفضيل الممدوح وحده على الناس كلهم وهو داخل فى مجموعهم فأشرك نفسه مع ممدوحه فقال فى على بن سيار :

ألوم به من لامنى فى وداده * وحقٌ لخير الخلق من خيره الودُّ

فجعل نفسه وممدوحه خير الخلائق .

وقال فى ابى العشائر :

شاعر المجد خدنه شاعر اللفـــظ كلانا رب المعانى الدقاق

ولاأخال مثل هذا المدح خطر ببال شاعر قبله ولااحسب حساده لدى ابى العشائر تمكنوا منه باكثر من هذا البيت وظنى بهم وقد قالوا للأمير بأى

شيء مدحك هذا المستجدى بشعره حين سواك بنفسه؟ فكان ذلك سبب جفائه له .

وانظر الى ادب الشريف الرضى . فى مثل هذا حين عاتب الامام القادر العباسى قائلاً :

عطفاً أمير المؤمنين فاننا * فى ساحة العلياء لانتفرق
مابيننا يوم الفخار تفاوت * أبداً كلانا فى المعالى معرق
إلا الخلافة ميزتك فانني * اناعاطل منها وأنت مطوق

فاعترف له بأن الخلافة ميزته عنه ، ومع أنهما أبناء عم فقد غضب الأمام وقال له ، على رغم أنف الشريف .

وأحسن ما للمتنبي فى هذا الباب قوله فى سيف الدولة :

لا تطلبنّ كريماً بعد رؤيته * ان الكرام بأسمائهم يداً ختموا
ولا تبالى بشعر بعد شاعره * قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

فقد جعله أكرم الكرام وجعل نفسه أشعر الشعراء وفى هذا لاعتب عليه البتة .

ومما يدعوا إلى العجب ان هذه العادة لزمته حتى آخر أيامه ، فقد قال فى سيف الدولة وهو من أبدع المعانى :

رأيتك فى الذين أرى ملوكاً * كأنك مستقيم فى محال (١)
فان تفق الأنام وأنت منهم * فان المسك بعض دم الغزال

وقال فيه من قصيدة أخرى وهو أغرب ما صدر من شاعر :

إن كان مثلك كان أو هو كائن * فبرئت حينئذ من الاسلام

ومع هذا كله فانه لما بلغ كافوراً قال فيه بعد وصف الركائب التى حملته اليه

قواصد كافور توارك غيره * ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه * وخلت بياضاً خلفها ومآقيا (٢)

فلما تركه قال فى حاكم شيراز وهى آخر قصيدة قالها

---

(١) يريد موجودا فى معدوم (٢) جعله سواد عين الزمان وما عداه من الملوك بياضها

ومن أعتاض عنك إذا افترقنا * وكل الناس زورٌ ما عدا كا
حَبِيٌّ من إلهى أن يرانى * وقد فارقت دارك واصطفاكا

فهذه الوثائق القيمة تبين لك السبب فى جفاء الممدوحين للمتنبي .

وقد ظهر لى أيضاً من قص آثاره أنه كان إذا فارق أميراً بعد مدحه لم يعد إليه ثانية حتى أن سيف الدولة الذى طالت صحبته معه بعد أن فارقه واتصل بكافور ثم هجره وعاد إلى العراق دعا المتنبي مراراً فلم يرحل اليه بل صار يمدحه عن بعد واعتذر مرة عن الرحيل اليه بقوله :

وما عاقنى غير قول الوشاة * وإن الوشايات طرق الكذب
وتكثير قومٍ وتقليلهم * وتقريبهم بيننا والخبب (١)

يقول أخاف من الوشاة الذين حولك أن يكثروا من معايبى وأن يقللوا من فضائلى عندك ساعين بيننا بافساد ظنك بى .

ولا يبعد أن يكون السبب فى عدم رجوعه إلى الممدوحين هو خوفه منهم أن يقتلوه لما سبق له من التعريض بذمهم عند مدح غيرهم ، وربما كان ماحمله على هذا الخوف مالقيه من أبى العشائر ، فانه حين فارقه ارسل وراءه غلمانه ليقتلوه فرماه أحدهم بسهم فأخطأه وقال خذه وأنا غلام أبى العشائر ، فقال المتنبى مرتجلاً وهو من محاسن قوله ، ويدل على أنه خرج من عند أبى العشائر كارهاً :

ومنتسبٍ عندى إلى من أحبه * وللنبل حولى من يديه حفيف (٢)
فهيج من شوقى وما عن مذلة * حننت ولكنّ الكريم ألوف
وكل وداد لا يدوم على الأذى * دوام ودادى للحسين ضعيف
فأن يكن الفعل الذى ساء واحدا * فأفعاله اللائى سررن ألوف
ونفسى له نفسى الفداء لنفسه * ولكنّ بعض المالكين عنيف
فان كان يبغى قتلها يك قاتلاً * بكفيه فالقتل الشريف شريف

---

(١) التقريب والخبب : نوعان من أنواع السير

(٢) الحفيف : صوت السهم عند انطلاقه من القوس

وفى هذه المناسبة أذكر حادثة وقعت للعكوك الشاعر وهو على بن جبله نقلها الرواة وذكرها صاحب عصر المأمون وهى أنه مدح أبا دلف احد قواد المأمون بقصيدة قال فيها :

إنما الدنيا أبودلف * بين باديه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف * ولت الدنيا على أثره

فبلغ قوله هذا حميداً بن عبد الحميد وكان ممن يمدحهم العكوك ويأخذ جوائزهم ، فقال له ماذا أبقيت لنا بعد هذا ؟ فاضطر لأن يقول ارضاء له

إنما الدنيا حميد * وأياديه الجسام
فاذا ولى حميد * فعلى الدنيا السلام

ولكن أين هذا من ذاك . وإنى لأظنه ذاب خجلاً من هذا العتاب . وقيل إن المأمون سمع بهذه القصة فقال لست لأبى ان لم أقطع لسانه أو أهدر دمه ؛ وانت ترى أن خطأ العكوك أقل بكثير مما جاء به المتنبى فلا غرابة اذا فيما لقيه المتنبى بسبب خطته هذه التى مكنت حساده من نفسه فصغروا شأنه وأوصدوا دونه سبيل الراحة وصمدوا للاغراء به وأبانوا للممدوحين تعريضه بذمهم واتخذوا من ذلك سهاماً أحكموا رمايتها فأصابت قلب آماله ، حتى حرموه ثمار هذا الشعر البديع وحصروه فى نفسه إلى أن صار يظن أن كل ماعداه يطلب أذاه .

ويدلك على مدى ماأصابه فى ذلك قوله متضجراً من الحساد كارهاً الحياة من أجلهم :

ومالىلٌ بأطول من نهار * يظل بلحظ حسادى مشوبا (١)
وما موتٌ بأبغض من حياة * أرى لهم معى فيها نصيبا

وقوله وهو يرى أنهم يريدون موته :

ولو أنى حسدت على نفيس * لجدت به لذى الجد العثور (٢)
ولكنى حسدت على حياتى * وما خير الحياة بلا سرور

---

(١) أى يخالط هذا النهار نظرى إلى حسادى (٢) يريد : البائس

وصار يحسب أنه لايخلو مكان من عدو له أو حاسد ، فأصبح إذا زار صديقاً خفف المكث عنده خشية وجود واش يكدر صفاء عيشه وصرّح بذلك فى زيارته لعلى بن احمد المرى فانه لم يطل المكث عنده فسأله عن السبب فقال :

لاتنكرنّ رحيلى عنك فى عجلٍ * فانى لرحيلى غير مختار
وربما فارق الأنسان مهجته * يوم الوغى غير قالٍ خشية العار (١)
وقد بليت بحسادٍ أحاربهم * فاجعل ندائك عليهم بعض أنصارى

والذى دهشت منه أن المتنبى لم يفكر فى سبب كره الناس له، ليزيل ما بينه وبينهم من العداء ، بل صار يفكر فيما يصنعه فيهم حتى يثأر لنفسه منهم وقد توسع فى التفكير حتى وَهِمَ بأنه سيكون يوماً ما ملكاً كهؤلاء الملوك فيحاربهم ويفعل ما يعجزون عنه ، ثم قوى عنده هذا الخيال حتى ظن أن ذلك لامحالة واقع وزادنى دهشة أنه كان مؤمناً بهذا الوهم وجهر به للناس فقال مهدداً مَنْ مدحهم من قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الله الخطيب قاضى انطاكية :

لله حال أرجيها وتخلفنى * وأقتضى كونها دهرى ويمطلنى
مدحت قوماً وإن عشنا نظمت لهم * قصائداً من إناث الخيل والحصن (٣)
تحت العجاج قوافيها مضمرة * اذا تنوشدن لم يخطرن فى أذن (٤)
فلا أحارب مدفوعاً الى جدرٍ * ولا أصالح مغروراً على دخن (٥)

يزعم أنه ستنظم لهم قصائد أخرى غير التى مدحهم بها أبياتها كرائم الخيل فيخضعهم (ثم يكون هو الذى يملى شروط الصلح)

وقال من قصيدة يمدح بها على بن سيار :

---

(١) الوغى ـ الحرب وقال ـ كاره. يعنى أن الانسان ربما عرض نفسه للقتل فى الحرب غير كاره للحياة بل خشية عار الفرار من الزحف

(٢) اقتضى كونها أى أطالبه بها (٣) الحصن بضمتين جمع حصان (٤) العجاج غبار الحرب ومضمرة معدة للسباق (٥) يريد أن لاينتظر حتى يفاجئه العدو فيحاربه فى أرضه ولا يصالح صلحاً غير شريف (والدخن الفساد)

سأطلب حـــق بالقنا ومشايخ * كأنهم من طول ماالتثموا مرد(١)
ثقال إذا لاقوا خفافٌ إذا دعووا * كثير إذا اشتدوا قليل إذا عدوا(٢)

يقول هـذا وهو لايملك غير نفسه ولـكن خياله أوحى إليه بأنه سيكون له جيش هذه صفة أبطاله فلما أعياه الصبر قال :

سيصحب النصل منى مثل مضربه * وينجلى خبرى عن صمة الصمم (٣)
لقـد تصبرت حتى لآت مصطبر * فالآن أقحم حتى لات مقتحم(٤)
لأتركن وجوه الخيـــل ساهمةً * والحرب أقوم من ساق على قدم(٥)

ويقول فى هذه القصيدة متعجباً من بقاء السيادة لغيره:

أيملك الملك والاسياف ظامئـة * والطير جائعةٌ لحم على وضم(٦)
من لو رآنى ماتٍ من ظمأ * ولو عرضت له فى النـوم لم ينم
ميعاد كل رقيـق الشفرتين غداً * ومن عصى من ملوك العرب والعجم(٧)

ولـكن بقى مكانه لم يتقدم فقال يمنى نفسه بأن يوم النصر آت لاريب فيه .

ولا بد من يوم أغر محجل * يطول استماعى بعده للنوادب(٨)

ولم يقف بخياله عند هذه الأمنية بل عرض لعينيه جميع بلاد العرب ومناه بها كلها فقال من قصيدة يمدح بها على بن احمد المرى :

ضاق ذرعاً بأن اضيق به ذر * عآزمانى واستكرمتنى الكرام (٩)

---

(١) القنا ـ الرماح ويريد بالمشايخ الابطال المدربين (٢) يصفهم بالثبات عنـد اللقاء واجابة الداعى (٣) النصل، السيف ـ ومضربه حده ـ والصمة الشجاع، يقول سيظهر لـكم أنى أشجع الشجعان (٤) لات . من الحروف المشبهة بليس : أى صبرت حتى فرغ صبرى والآن اقتحم كل صعب (٥) ساهمـة متغيرة من آثار المعمعة (٦) يقول : أيملك الملك من هو كاللحم الملقى على خشبة الجزار والسيوف عطشى لتقطيعه والطير جائعة لأكله؟ (٧) رقيق الشفرتين السيف (٨) الاغر المحجل الفرس الذى بين عينه وفى قوائمه بياض يريد أن هذا اليوم سيكون مميزاً بكثرة القتلى ويستمر ندب النادبات طويلا بعده (٩) ضاق ذرعاً كناية عن قصر اليد والعجز عن الطلب

واقفاً تحت اخمصى قدر نفسى * واقفاً تحت اخمصَى الأنام(١)
أقراً ألذُّ فوق شرار * ومراماً أبغى وظلمى يرام (٢)
دون أن يشرق الحجاز ونجد * والعراقان بالقنا والشام(٣)

هكذا كانت آمال المتنبى تحول بينه وبين مسالمة الناس تمنيه بأنه سيكون ملكاً على جميع بلاد العرب . فلا حاجة له بالتودد الى الناس ويصرح بهذه الامنية فى مدح الأمراء وتتناقلها الألسنة وتسير بها الركبان ، وكلما زادت شيوعاً بين الناس زادوا فى هجره وقد انتهى هذا الطور من حياته وهو اعجز مايكون عن بلوغ شىء مما اراد ؛ ثم لحق بسيف الدولة على بن عبدالله بن حمدان العدوى سنة ٣٣٧ هجريه ومدحه وطالت صحبته معه فاغناه عن الاتصال بسواه

القسم الثانى من حياة المتنبى

« طور سعته »

لاشك فى أن الأيام التى قضاها المتنبى فى صحبة سيف الدولة كانت أسعد أيام حياته . فقد كان فى رغد من العيش وسعة من الرزق ونعم لم يحظ بمثلها من قبل ولم ير بعدها فاقة لأن سيف الدولة أجزل له العطاء . وحباه من الخير ماصرفه عن التحول إلى سواه . وتظهر لك حاله واضحة فى قوله حين أراد الخروج إلى الضيعة التى أقطعه إياها فى معرة النعمان وهو :

أيا رامياً يصمى فؤاد مرامه * ترى عداه ريشها لسهامه (٤)
أسير إلى اقطاعه فى ثيابه * على طرفه من داره بحسامه (٥)
وما مطرتنيه من البيض والقنا * وروم العبدى هاطلات غمامه (٦)

---

(١) يقول انى واقف تحت اقدام نفسى وجميع الناس تحت قدمى (٢) استفهام انكارى يقول كيف يلذ لى القرار فوق النار (٣) يشرق يغص ، يريد أن هذه الاماكن سوف تغص من كثرة رماح جيشه (٤) يصمى يصيب المقتل والمراد بريشها السهام . اموالها غنيمة له (٥) اقطاعه الارض التى اقطعه اياها والطرف بكسر الطاء الفرس الكريم (٦) العبدى العبيد

فتًى يهب الاقليم بالمال والقرى * ومَن فيه من فرسانه وكرامه
ويجعل ماخولته من نواله * جزاء لما خولته من كلامه (١)
فلا زالت الشمس التى فى سمائه * مطالعة الشمس التى فى لثامه
ولازال تجتاز البدور بوجهه * فتعجب من نقصانها وتمامه

ففيها يعترف بأنه أصبح ذاأرض ودار وسلاح وعبيد وقد أنساه هذا اليسر « طبعاً » ما كان يضمره من الشر للناس حتى أنه التمس لحساده العذر على ماهو فيه من النعم فقال فى قصيدة مدح بها سيف الدولة :

وللحساد عذر أن يشحُّوا * على نظرى إليه وأن يذوبوا (٢)
فانى قد وصلت إلى مكان * عليه تحسد الحدق القلوب

ولم تعاوده خواطره الأولى مدة صحبته له إلا مرةً واحدةً فقال فى قصيدة يمدحه بها :

أهمٌّ بشىء والليالى كأنها * تطاردنى عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان فى كل بلدة * إذا عظم المطلوب قل المساعد

ثم أخذ يتفنن فى مدح سيف الدولة فوصف جيوشه وحروبه ونصره بما ستراه فى المختار من شعره .

ولكن بينما هو فى بحبوحة من السرور ، فوجىء بنكدٍ لم يكن فى حسبانه . وظهر له من حاشية سيف الدولة أعداء ، ومن الشعراء حساد ، ومن العلماء نقاد ، واستمع سيف الدولة لقولهم فيه واستطاعوا أن يغيروا ما فى نفسه عليه حتى لاه مرةً على مافيه من كبرياء وتيه فقال المتنبى يمدحه ويذكر ذلك :

أفى كل يوم تحت ضبنى شويعرٌ * ضعيف يقاوينى قصير يطاول (٣)

---

(١) خوله الشىء ملكه اياه (٢) كان المتنبي يخال ان جميع الناس حساده حتى لقد سمى ابنه محسداً « على وزن محمد »

(٣) تحت ضبنى أى تحت إبطى :شويعر تصغير شاعر للتحقير وكان يعاصر المتنبي

لسانى بنطقى صامت منه عادل * وقلبى بصمتى ضاحك منه هازل
وما التيه طبى فيهم غير أننى * بغيض إلىّ الجاهل المتعاقل(١)
وأكبر تيهى أننى بك واثق * وأكثر مالى أننى لك آمل

ثم زاد الجفاء بينهما فاضطر المتنبى لعتاب سيف الدولة فقال قصيدته المشهورة التى مطلعها :

واحرّ قلباه ممن قلبه شبم * ومن بحالى وسقمى عنده سقم (٢)

وفيها يقول لسيف الدولة :

ياأعدل الناس إلا فى معاملتى * فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة * أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخى الدنيا بناظره * إذا استوت عنده الأنوار والظلم

وفيها يعاتبه :

يامن يعزّ علينا أن نفارقهم * وجداننا كل شىء بعدكم عدم
ماكان أخلقنا منكم بتكرمة * لو أن أمركم من أمرنا أمم(٣)
ان كان سرّكم ما قال حاسدنا * فما لجرحٍ اذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة * ان المعارف فى أهل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم * ويكره الله ماتأتون والكرم

ثم عرض فيها بأنه سيفارقه الى غيره بقوله :

أرى النوى يقتضينى كل مرحلة * لا تستقل بها الوخادة الرسم (٤)
لئن تركن ضُمَيراً عن ميامننا * ليحدثن لمن ودعتهم ندم (٥)

من الشعراء السرى الموصلى والنامى والببغاء والواو وغيرهم كمحمد بن هاشم واخيه سعيد وابن نباته السعدى وكلهم يمدحون سيف الدولة ويأخذون جوائزه (١) التيه الكبر ـ طبي شأنى (٢) ماءشبم · بارد (٣) أمم . قريب

(٤) الوخادة الرسم . الناقة السريعة التى تترك اخفافها أثراً فى الارض كأنها تحدث فيها رسما (٥) ضمير . جبل عن طريق الراحل من حلب الى الشام ، يريد أنه إذا سار بجوار هذا الجبل قاصداً الشام فان سيف الدولة يندم

إذا ترحلت عن قومٍ وقد قدروا * ان لاتفارقهم فالراحلون هم

وختمها بقوله :

بأى لفظٍ تقول الشعر زعنفة * تجوزعندك لاعرب ولاعجم(١)

هـــذا عتابك إلا أنه مِقةٌ * قد ضمن الدر إلا أنه كلم(٢)

وهـذه القصيدة من أبدع ماقيل فى العتاب مع كبرياء العاتب وعلو مكانة المعاتَب . وقد غضب سيف الدولة منه بسببها وأهمله مـــدة فاستعطفه المتنبى بقوله :

ألا مالسيف الدولة اليوم غاضباً * فداه الورى أمضى السيوف مضاربا

ومالى إذا مااشتقت أبصرت دونه * تنائف لا أشتاقها وسباسبا(٣)

وقد كان يدنى مجلسى من سمائه * أحادث فيها بدرها والكواكبا

حنانيك مسئولاً ولبيك داعياً * وحسبى موهوباً وحسبك واهبا(٤)

أهذا جزاء الصدق إن كنت صادقاً * أهذا جزاء الكذب إن كنت كاذبا

وإن كان ذنبى كل ذنب فانه * محا الذنب كل المحو من جاء تائبا

فرضى عنه . ولكن نفس المتنبى التى عرفها لم تقبل أن يكون هو التائب فأمسك مدة عن مدح سيف الدولة فى أوقات كان لايقصر عنه فى مثلها عند ذلك سأله سيف الدولة عن السبب فقال مصرحاً بما يضمره من ناحيته مع شىء من التلطف :

أرى ذلك القرب صار ازورارا * وصار طويل الكلام اختصارا

تركتنى اليوم فى خجلة * أموت مراراً وأحيا مرارا

أسارقك اللحظ مستحياً * وأزجر فى الخيل مهرى سرارا(٥)

وأعلم أنى إذا ما اعتذر * ت إليك أراد اعتذارى اعتذرا

---

(١) الزعنفة — الاوباش (٢) مقة — محبة (٣) التنائف جمع تنوفة وهى المفازة الواسعة الا- لاماء فيها والسباسب الفلوات (٤) حنانيك . استعطاف (٥) أى أمشى فى عسكرك مستتراً حياء منك

كفرتُ بمكارمك الباهرات * إذا كان ذلك منى اختيارا
ولكن حمى الشعر الا القليل * همٌ حمى النوم إلا غرارا (١)
وما أنا أسقمت جسمى به * ولا أنا أضرمت فى القلب نارا
فلا تلزمنى ذنوب الزمان * إلى أساء وإياى ضارا (٢)

فابتسم سيف الدولة . وعاد المتنبي إلى مدحه . ولكن بقى فى النفس شيء كامن حتى وقعت حادثة المتنبي مع ابن خالويه النحوى فى مجلس سيف الدولة فأهاجه المتنبي فضربه ابن خالويه بمفتاح كان فى يده فشجه ولم ينتصر له سيف الدولة فغضب ورحل عنه الى دمشق وكان ذلك سنة (٣٤٦) ثم اتصل بالأستاذ كافور الاخشيذ ملك مصر فابتدأ طور رجائه (٣)

القسم الثالث من حياة المتنبي

«طور رجائه»

« سميت مدة اتصال المتنبي بالاستاذ كافور طور رجائه لانه كان فى أيام هـذا الطور راجياً منه أن يحقق أملا لزمه فى جميع مامر من حياته وهو أن يجعله والياً على احدى إمارات ملكه »

لما قصد المتنبي كافوراً عادت اليه تلك الآمال التى خبت نارها مدة اتصاله بسيف الدولة ولم يبق عنده شك فى أن كافوراً سيجعله عاملاً له على إحدى ولايات الشام فيصير ملكاً قوياً قادرا على تنفيذ أمنيته التى صرح بها فى قوله :

« مدحت قوماً وإن عشنا نظمت لهم » الخ

وقوله — «سأطلب حق بالقنا ومشايخ»

---

(١) الغرار ـ النوم القليل (٢) أى جلب لى هذا الضرر (٣) كان كافور من عبيد الاخشيذ صاحب مصر وارتقى الى قيادة الجيش ثم تقلد الوزارة لولديه محمود وعلى من بعده ، وبعد موتهما بقيت مصر بلا أمير أياما ثم بويع كافور ويشمل حكمه مصر والشام والحجاز ، وذلك فى أيام الخليفة المطيع لله العباسى ومات سنة ٣٥٧ هجرية بعد المتنبي بثلاث سنين .

وغير ذلك مما قرأته له فى طور بؤسه فلما دخل مصر عرّض بطلبه فى أول قصيدة مدح بها كافور ، ثم استمر يكرر الطلب ويلح على الاستاذ ليبادر به حتى آخر شعر قاله فيه .

فى أول قصيدة افتتح بها مديحه . ذكر طلبه تلميحاً فقال :

أبا المسك ذا الوجه الذى كنت تائقاً * إليه وذا اليوم الذى كنت راجيا (١)

إذا كسب الناس المعالى بالندى * فانك تعطى فى نداك المعاليا (٢)

وغير كثير أن يزورك راجل * فيرجع ملكاً للعراقين واليا (٣)

يقول له ليس بكثير أن يزورك مثلى سعياً على قدميه فيرجع من عندك ملكاً للعراقين « وهما الكوفة والبصرة » ولم يكونا من املاك كافور بل كانتا للخليفة العباسى وإنما ذكرهما المتنبى ليريه أن سلطانه يمتد إليهما . يغريه بذلك ، وكان يأمل أن يكون جواب كافور له قد وليتك . ولكنه ابتسم وأمر له بدار ومال . فأمهله مدة ثم قال له فى قصيدة أخرى يشرح له نفسيته ليجعله على بينة من أمره :

يارجاء العيون فى كل أرض * لم يكن غير أن أراك رجائى

ولقد أفنت المفاوز خيلى * قبل أن نلتقى وزادى ومائى

فارم بى ماأردت منى فانى * أسد القلب آدمى الرواء

وفؤادى من الملوك وإن كا * ن لسانى يرى من الشعراء

يقول له انانى النظر إنسان ولى قلب أسد وفؤاد ملك ولسان شاعر . فلم يعبأ كافور بهذه الأوصاف ، فقال له من أخرى متملقاً ومداهناً :

قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم * إلى غيوث يديه والشآبيب (٤)

الى الذى تهب الدولات راحته * ولا يمنّ على آثار موهوب

---

(١) أبا المسك كنية كافور وتائقاً مشتاقاً

(٢) الندى . الجود (٣) الراجل الذى يسافر ماشياً (٤) الشآبيب . دفعات المطر الشديدة

يريد بالغيث سيف الدولة . ويقول إنه تركه وجاء إلى من يعطى الممالك ولا يمن عليها ، فابتسم له كافور وسكت عن طلبه فقال له من أخرى متذللا ومعرضاً بأن يجرّ به ليثق من جدارته بما يريد :

فان نلت ما أملت منك فربما * شربت بماء يعجز الطير ورده(١)
فكن فى اصطناعى محسناً كمجرب * يبين لك تقريب الجواد وشده(٢)
إذا كنت فى شك من السيف فابله * فاما تنفيه واما تعده (٣)
وما رغبتى فى عسجد أستفيده * ولكنها فى مفخر أستجده (٤)

فكرر له كافور تلك الابتسامة فضجر المتنبى وقال له من اخرى يستحثه على انجاز الأمر

أبا المسك أرجو منك نصراً على العدى * وآمل عزا يخضب البيض بالدم (٥)
ويوماً يغيظ الحاسدين وحالة * أقيم الشقا منها مقام التنعم
قد اخترتك الاملاكَ فاختر لهم بنا * حديثاً وقد حكمت رأيك فاحكم (٦)
ولو كنت أدرى كم حياتى قسمتها * وصيرت ثلثيها انتظارك فاعلم

فلم يجد من كافور إلا تغاضياً فظن أنه لم يفقه ما أراد فقال له مصرحا :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله * فانى أغنى منذ حين وتشرب
وهبت على مقدار كفى زماننا * ونفسى على مقدار كفيك تطلب
إذا لم تنط بى ضيعةً أو ولايةً * فجودك يكسونى وشغلك يسلب(٧)

فابتسم وهز له رأسه . فظن أن ذلك وعد منه ، فقال له من أخرى متملقاً :

وان تأخر عنى بعض موعده * فما تأخر آمالى ولا تهن(٨)

---

(١) ورود الماء . اتيانه للشرب والأخذ منه (٢) التقريب والشد ـ نوعان من جرى الخيل : والجواد ـ الفرس (٣) ابله ـ جربه ، تنفيه تلقيه بعيداً : وتعده ـ تجعله عدتك للقتال (٤) العسجد ـ الذهب : استجده . أى أجدده (٥) البيض ـ السيوف (٦) أخترتك الاملاك ـ أى اخترتك من الملوك ـ (٧) تنط ـ تعلق ، ومراده تعطينى (٨) تأخر — أى تتأخر : وتهن تضعف

هو الوفى ولـكنى ذكرت له * مودة فهو يبلوها ويمتحن (١)

فلم يغن تملقه فى كافور شيئاً . فقال له من أخرى ، وهى آخر شعر مدحه به ولم يلقـه بعـدها :

أرى لى بقربى منك عيناً قريرة * وان كان قرباً بالبعاد يشاب (٢)

وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننـا * ودون الذى أملت منك حجـاب

وفى النفس حاجاتٌ وفيك فطانه * سكوتى بيان عندها وخطاب

وما شئت إلا أن أدل عواذلى * على أن رأيى فى هواك صواب

واعلم قوماً خالفونى وشرقوا * وغربت أنى قـد ظفرت وخابوا

فلم يزد كافور على ابتسامته التى كان يقابله بها شيئا . عند ذلك انقطع أمـل المتنبى وتمكن اليأس من نفسه . وخفت غـلواؤه ، وخَبَتْ نارهمته ، وتبـين له أن سـعيه ذهب سـدًى فترك مصر ، وعاد إلى العراق ، وانتهى بذلك طور رجائه .

وهنا تتوق النفس إلى جلاء امرين هامين أولهما . معرفـة السبب الذى حمل كافورًا على حرمان المتنبى مما ألح فى طلبه مع أنه أمرٌ لا يهم كافورًا لسعة ملكه وكثرة ولاياته وولاته . الثانى — هل أخطأ كافور فى حرمان المتنبى من توليته إمارة بعض النواحى وأضاع الانتفاع بعبقريته وهمته أم أصاب فى ذلك وأن المتنبى لا يصلح لتوليه الامارة ؟

مرّ بى هذا الخاطر فرجعت إلى ديوانه أتلمس الحل لهذين اللغزين فبان لى أن المتنبى نفسه هو الذى حمل كافورًا على سوء الظن باخلاصه كما تبين لى انه لا يصلح لأن يكون أميراً ولما فى هذا البحث من اللذة رأيت أن أثبته كاملاً قبل الكلام على طور يأسه فأقول :

كيف شك كافور فى إخلاص المتنبى ؟

---

(١) يبلوها ويمتحن أى يجربها ويختبرنى (٣) يشـاب ـ يمزج أى قرب بلا عطف

لما ظهر المتنبي زادت شهرته . وبلغت كافوراً فتاقت نفسه إلى سماع مدح هذا الشاعر العظيم فيه . فاستدعاه بعد أن فارق سيف الدولة فرحل اليه وكان ظن كافور (طبعاً) أن هذا الشاعر يمدحه ويقيم عنده ماشاء ويأخذ جوائزه ثم يعود إلى بلاده شاكراً ، أو تطيب له الاقامة فى مصر فيبقى شاعره مادام حياً ، ولذلك أعدّ له داراً وغمره بالخير واستقبل مدحه . ولكن ماذا فعل المتنبي ؟

فاجأ المتنبي كافوراً بامرين ما كانا يخطران له على بال . وأمر ثالث أدهى وأمر

الأمر الأول

كان المتنبي يفتتح أكثر قصائده التى يمدح بها كافوراً بذكر سيف الدولة والشوق إليه وأسفه على فراقه وقد يعثر فيذم بها كافوراً وناهيك عن تشاؤم كافور منه عند أول قصيدة افتتح بها مدحه . وليس الاستاذ كافور بالرجل الهين الذى تمر به الحادثات عفواً ، بل هو الرجل الذى نهض بهمته وذكائه من بين الخدم حتى قاد جيش الاخشيد ، ثم جلس على عرش مصر ، ومثله لاتنطلى عليه مداهنة المتنبي ، ولا يهزة مدحه المحصور بين شوق إلى سيف الدولة ، وإلحاح بطلب أمرٍ لاتسمح به ألملوك إلا لمن يعتقدون إخلاصه لهم وتفانيه فى خدمتهم .

أما القصيدة التى تشاءم منها كافور فهى قول المتنبي :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا * وحسب المنايا ان يكن أمانيا

تمنيتها لما تمنيت أن ترى * صديقاً فأعيا أو عدواً مداجيا

بهذا المطلع افتتح المتنبي مدح كافور ينشده وعين الممدوح شاخصة إليه ؛ وقد احاطت به رجال دولته يستمعون مدح الشاعر الشهير لملكهم الجليل فيقول له حسبك الداء الذي لا يشفيك منه غير الموت وإنك تمنيت هذا الموت حين لم تجد صديقاً مخلصاً ولا عدوا يستر عدواته .

انظر كيف جعل فراق سيف الدولة داء ولقاء كافور موتاً يستشفى به من ذلك الداء. ولعمرى لقد أحسن كافور بالمتنبى ووسعه حلماً إذ لم يرده على عقبيه إلى الشام بعد هذه القصيدة

وقد كنت اعجب لاختيار المتنبى هذا المطلع ولكنى لما بحثت عن سببه عرفت أن ألمه لفراق سيف الدولة سبق أمله فى كافور فأملى عليه ماقال

وانك لتدرك حزن المتنبى على فراق سيف الدولة كامناً فى كل بيت من ديباجة هذه القصيدة تحت ستار من السلوان فقد قال فيها مخاطباً قلبه :

حبتك قلبى قبل حبك من نأى * وقد كان غدار فكن أنت وافيا(١)
وأعلم أن البين يشكيك بعده * فلست فؤادى إن رأيتك شاكيا(٢)
فان دموع العين غدر بربها * إذا كن إثر الغادرين جواريا(٣)
أقل اشتياقاً أيها القلب ربما * رأيتك تصفى الود من ليس صافيا
خلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبا * لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

فانظر الى هذا الأسف الشديد فى قالب السلو والهجر - يقول لقلبه : أحببتك ياقلبى قبل أن تحب سيف الدولة ، وهو قد غدر بى فلا تغدر بى أنت وتبق على مودته . وإنى لاأشك فى أن بعده سيحملك على الشكوى والشوق اليه ، فان فعلت ذلك فأنا برىء منك : وأنت يادموعى إذا جريت شوقاً إليه كان ذلك منك غدراً بى : ثم أظهر شديد توجعه بقوله : « خلقت ألوفاً » فلو قدّر لى فراق هذا الشيب الذى أمقته ، لفارقته باكياً على صحبته . فكيف لاأبكى على صحبة سيف الدولة ؟ ثم خرج بعد هذا كله إلى مدح كافور . ولاشك أن كافوراً تشاءم من المطلع ، وتأفف من ذكر الشوق إلى سيف الدولة ، ثم سخر من طلب المتنبى بعد ذلك .

وقال فى ديباجة قصيدة أخرى :

أود من الايام مالا توده * وأشكو إليها بيننا وهى جنده

---

(١) نأى - بعد (٢) يشكيك - يحملك على الشكوى (٣) غدر جميع غدور

يباعدن حبًا يجتمعن وصله * فكيف بحب يجتمعن وصده
أباخلق الدنيا حبيباً تديمه * فما طلبي منها حبيباً ترده(١)

يقول : أريد من الأيام أن تجمعنى بمن أحب ؛ وهى لاتريد ذلك وأشكو اليها فراقنا : وهى التى تنفذ مراده فينا . ومن أخلاقها أنها لاتبقى معى حبيباً فكيف أطلب منها أن ترد لى حبيباً أبعدته : وبعيد أن يكون مراده فى ذلك غير سيف الدولة . وهيهات أن يسمع كافور مثل هذا ثم تستريح نفسه اليه .

ويقول لكافور من أخرى وقد أهدى اليه فرساً فتذكر عطايا سيف الدولة من الخيل المطهمة العتاق :

فراقٌ ومن فارقت غير مذمم * وأمٌّ ومن يممت خير ميمم(٢)
وما منزل اللذات عندى بمنزل * إذا لم أبجل عنده وأكرم
رحلت فكم باكٍ بأجفان شادنٍ * علىَّ وكم باكٍ بأجفان ضيغم(٣)
ومارَّبة القرطَ المليح مكانه * بأجزع من ربِّ الحسام المصمم(٤)
فلو كان مابى من حبيبٍ مقنع * عذرت ولكن من حبيب معمم
رمى واتقى رمي ومن دون ماتقى * هوًى كاسرٌ كفى وقوسى وأسهمى
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه * وصدَّق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه لقول عداته * وأصبح فى ليلٍ من الشك مظلم

يقول : فارقت سيف الدولة ، وهو غير مذموم ، وقصدت كافوراً وهو خير مقصود ؛ وقد رحلت عمن فارقته فبكى علىَّ النساء والرجال ولو كان هـذا الشوق على حبيب ذى قناع عذرت ولكن على حبيب يلبس العمامة « وهو سيف الدولة لاشك » ويقول : رمانى وهو واثق بأن محبته تقيه لسانى . ثم يعاتب نفسه ويذكر أن العداوة بينهما نشأت من سماعهما

---

(١) الحب بكسر الحاء ـ الحبيب (٢) مذمم ـ مذموم (٣) الشادن ـ الغزال ، والضيغم ـ الاسد (٤) أى الحسناء ذات (الحلق) والشجاع ذو الصمصامة وهى السيف القصير

لقول العداة ولا أدرى كيف استطاع انشاد هذه القصيدة فى حضرة كافور وحسبها من مدائحه فيه .

ويقول فى مدح كافور من أخرى ذاكراً سيف الدولة :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب
وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب
أماتغلط الايام فىّ بأن أرى * بغيضاً تنائى أوحبيباً تقرب
ولله سـيرى ماأقل تئيةً * عشية شرقىّ الحدالى وغرّب (١)
عشية أحفى الناس بى من جفوته * وأهدى الطريقين التى أتجنب (٢)

يقول لسيف الدولة : أغالب عليك شوقى فيغلبنى . أما هذه الايام أن تغلط فتبعدعنى من أكره وتقرب منى من أحب . يقول هذا وهو فى مجلس كافور . وليس أحد أقرب إليه منه . ثم يأسف على سيره فى الشام بين مكان يسمى الحدالى وجبل يسمى غرب حينما كان أكثر الناس حفاوة به من جفاه وهو سيف الدولة ، وأهدى الطريقين التى تجنبها وهى التى توصله إلى سيف الدولة وطبعاً سلك اضلّهما وهى الطريق التى أوصلته الى كافور . وقد ذم كافوراً فى هذه الابيات كما ترى ثم انتقل بعدها الى مدحه ـ وأنا لا أشك فى أن المتنبى كان يعتقد فى كافور أنه لايدرك مايقوله فيه ويدلك على ذلك قوله فى ذمه بعد فراقه

ولولا فضول الناس جئتك مادحاً * بما كنت فى سرى بهلك هاجياً
فأصبحتَ مسروراً بما أنا منشدٌ * وإن كان بالانشاد هجوك غاليا

أى لولا من حولك يفهمونك بأنى أهجوك لهجوتك فى انشادى وكان ذلك يسرك لأنك لاتميز بين المدح والهجاء.

وأذكر أن ابن خلكان ذكر فى ترجمة المتنبى انه قال : كنت اذا أنشدت كافوراً ابتسم لى حتى قلت

---

(١) التئية ـ التوقف عن السير ، الحدالى ـ موضع بالشام ، غرب . جبل ـ أى ماأسرع سيرى بين هذين المكانين . (٢) أحفى ـ مبالغة فى الحفاوة وهى الاكرام والملاطفة .

ولما صار ود الناس خبًّا * جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه * لعلمى أنه بعض الأنام

فلم أره ابتسم بعدها حتى افترقنا . وهذا يدلك على عكس مافهمه المتنبي فيه

الامر الثانى

الحاح المتنبي الشديد على كافور ان يجعله أميراً على احدى ولايات ملكه مكرراً طلبه فى جميع القصائد التى مدحه بها كما رأيت فى طور رجائه

الامر الثالث

كان المتنبي يحتقر كافوراً . وقد هجاه قبل ان ينقطع امله منه وكان يهجوه بين الناس ثم يدخل عليه فيمدحه امّا بعد قطع أمله فلم يذمه الا فى أربع قصائد

الأولى : عند خروجه من مصر فى قوله

« عيدٌ بأية حال عدت ياعيد »

والثانية : لما بلغ الكوفة ووصف بها طريقه من مصر اليها وأوّلها

« ألا كل ما شية الخيزلى »

والثالثة بعد ذلك وأولها

(قطعت بسيرى كل بهماء مفزع) (١)

والرابعة وأولها

(افيقا خمارا لهم بغضنى الخمرا)

ونظمهما بمدينة واسط ووجدت مسوداتهما فى رحلة بعد قتله

ولا شك أن كافوراً كانت له عيون تراقب المتنبي وآذانٌ تسمع مايقوله فيه فتبلغه اليه وكافور كان يغض الطرف عن عقابه لأنه من الشعراء مكتفاً بعقاب الحرمان وحسرة الخيبة

وهذه الأسباب هى التى حملت كافوراً على الشك فى اخلاص المتنبي له وكانت سبب حرمانه مما اراد

---

(١) البهماء المفازة التى لاماء فيها ومفزع مخيفه

الامر الثانى

هل كان المتنبي أهلاً للولاية أم لا ؟

إن المتنبي يرى أن المجد لا ينال بالتمنى ، بل لابد للحصول عليه من وسائل يتصف بها طالبه ، وقد ذكرها مفصلة فى قصيدة مدح بها عليّ ابن ابرهيم وهى قوله :

من طلب المجد فليكن كعلى * يهب الألف وهو يبتسم
ويطعن الخيل كل نافذة * ليس له من وحائها ألم (١)
ويعرف الأمر قبل موقعه * فما له بعد فعله ندم
والامر والنهى والسلاهب والبيض له والعبيد والحشم (٢)
والسطوات التى سمعت بها * تكاد منها الجبال تنقصم
يرعيك سمعاً فيه استماع إلى الدا * عى وفيه عن الخناصم

فى هذه الأبيات يحتم المتنبي على طالب المجد « السيادة والملك » أن يتصف بخصال سبع :

أولها ـ الجود ؛ وذلك ليلتف الناس حوله ابتغاء خيره .

ثانيها ـ الشجاعة ؛ ليؤلف قوة من طالبى رفده يقاتل بها أعداءه .

ثالثها ـ الحزم ؛ حتى لا يفعل مايوجب ندمه .

رابعها ـ العصبية ؛ ليكون فى قوة من قومه يناصرونه ويشدون ازره .

خامسها ـ الجرأة ؛ لأن اقتحامه عظائم الأمور يملأ القلوب من هيبته ومحبته

سادسها ـ النجدة ؛ لتكثر صنائعه وأياديه على الناس فيفدونه بانفسهم .

سابعها ـ العفة ؛ لأن الدناءة تضعف هيبته ، وتسقط مروءته ، كما أن استماعة للوشاية يوسع الطريق للمفسدين فيكثر بذلك الناقمون عليه .

ويقول ان ممدوحه اتصف بهاجميعها فهو سيد بحق . والمتنبي نفسه طلب

---

(١) الوحاء ـ السرعة أى من سرعة نفاذ الطعنة فى العدو لا يشعر بألمها حتى يقع قتيلا

(٢) السلاهب ـ الخيل واحدها سلهب والبيض ـ السيوف ، والحشم ـ الاتباع

السيادة وأفنى حياته بين الأمل والرجاء . فهل اجتمعت فيه هذه السجايا ؟ نحن لا نطالبه باكثر مما اشترط .

بحثت عنها فى شعره فلم أجده فى اكثرها نصيباً وإليك الدليل :

أولا

ـ هل كان المتنبى جواداً كريماً ؟

وصف المتنبى نفسه بالعلم ، والفصاحة ، والشجاعة كقوله :

إذا صلت لم أترك مصالاً لفاتك * وإن قلت لم أترك مقالاً لعالم

وقوله :

ماناال أهل الجاهلية كلهم * شعرى ولاسمعت بسحرى بابل

وقد مرّ بك كثيرٌ من قوله عن نفسه فى الكلام على بؤسه . ولكنه لم يصفها بالكرم إلاّ عرضاً فى بيتين قالهما وهو فى أشد أيامه بؤساً وحينما كان يبحث عن رزقه فيعجزه .

أحدهما قوله :

كفانى الذم أنى رجلٌ * أكرم مالٍ ملكته الكرم

والثانى قوله :

« أنا ترب الندى » ورب القوافى * وسمام العدى وكيد الحسود

وهما على مافيهما من مخالفة الواقع لأنهما صدرا منه وقت أن كان يقول :

لم الليالى التى أخنت على جدتى * برقة الحال واعذرنى ولاتلم

فقد هشمهما ببيت لوقاله ، وموائده ممدودة على قارعة الطريق لعدّ بخيلا وهو قوله :

وربما أشهد الطعام معى * من لايساوى الخبز الذى أكله

وذلك لأن الكريم يأنف من ذكر الطعام ، وكان الحجاج يقول لجلسائه : « جنبوا مجالسنا ذكر الطعام ، فانى أكره الرجل أن يكون وصّافاً لبطنه » وانما يفتخر عادةً بذلك البخلاء ، وقد عرّض المتنبى بذكر الطعام أيضاً فى هجاء كافور بقوله :

جوعان يأكل من زادى ويمسكنى * كيما يقال عظيم القدر مقصود

وبقوله :

لو كان ذا الآكل أزوادنا * ضيفاً لأوسعناه إحساناً

ومحال أن يأكل كافور ملك مصر من زاد المتنبى « ضيفه » وانما لبخل المتنبى كان يستعظم أمر الطعام فيذكره افتخاراً وتبكيتاً . ومن هذا تعلم أن المتنبى لم يكن من الأجواد .

ثانياً

هل كان المتنبى شجاعاً سميذعاً ؟

وصف المتنبى نفسه بالشجاعة فى كثير من شعره ، وكانت عماد فخره كقوله لمن حذره عاقبة تهوره :

أمثلى تأخذ النكبات منه * ويجزع من ملاقاة الحمام

ولو برز الزمان الىّ شخصاً * لخفف شعر مفرقه حسامى

ولا بلغت مشيئتها الليالى * ولا سارت وفى يدها زمامى

اذا ملئت عيون الخيل منى * فويل فى التيقظ والمنام

وكنت أردت أن أتخذ من قوله دليلاً على شجاعته فوجدت فى شعره مايخرجه من مصاف الأبطال الذين ينطبق عليهم وصفه لنفسه وها أنا أذكر لك أربعة مواقف له جبن فيها كلها :

الأول : سأله سيف الدولة أن يصحبه فى حرب ينصر بها أخاه فاعتذر بشوقه الى العيال وقال من قصيدة مدحه بها :

ان الذى خلّفت خلفى ضائع * مالى على قلقى عليه خيار

واذا صحبتَ فكل ماء مشرب * لولا العيال وكل أرض دار

اذن الأمير بأن أعود اليهم * صلة تسير بذكرها الأشعار

وهذا الاعتذار تأباه نفس الشجاع الباسل .

وقد رأيت من أمره أن أكثر وقائع سيف الدولة كانت توصف له فكان لذكائه المفرط يصفها كأنه خاض المعمعة ، ولم يذكر عنه انه خاض حربا فابلى فيها .

الثانى : أنه سمع فى بعض أسفاره فى البادية زئير أسد ، وكان ذلك ليلاً ، فى مكان يسمى الفراديس ، فقال يصف موقفه شاكًا فى مصيره :

اجارك ياأسدالفراديس مكرم * فتسكن نفس أم مهان فسلَم

ورائى وقدامى عداة كثيرة * أحاذر من لصٍّ ومنك ومنهم

ولما سمع بأن الشجاع يخاف من الأسد ، وقد رأيت له أن بدر بن عمار خرج الى أسد فهرب منه ، ثم صادف أسداً آخر يأكل من بقرة افترسها فهاجه عنها فوثب الأسد الى كفل فرسه فأعجله عن استلال السيف فضربه بدر بالسوط فهوى

فقال المتنبى فى قصيدة يمدحه بها :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه * لمن ادخرت الصارم المصقولا

فهذه هى عادة الأبطال مع الاسود ، فكيف نعد المتنبى شجاعاً وهو يخاف من الأسد ومن اللص ايضاً .

الثالث — أنه كتب للأمير وهو فى الاعتقال :

بيدى أيها الأمير الأريب * لا لشىءٍ إلا لأنى غريب

أو لأمٍّ لها إذا ذكرتنى * دم قلب فى دمع عين يذوب

يقول له : خذ بيدى لأنى غريب ، ولأن أمى تبكى كلما ذكرتنى . والذى أعرفه أن الشجاع إذا قطع بالسيوف تأبى نفسه أن يجعل غربته وبكاء أمه على فراقه مما يشفع له عند الأمير ليفك اعتقاله .

الرابع — أنه هرب عند لقاء فاتك الأسدى . فلما عيره غلامه عاد خشية العار فقتل . ولا أخال من يحاول الهرب من مثل فاتك ، ثم يصرع بين يديه يسمى شجاعاً

هذا ، وقد ثبت لى أيضاً من بخل المتنبى أنه لم يكن شجاعاً لأن الكرم والشجاعة سجيتان متلازمتان ، ولأن جميع الأبطال الذين حفظ التاريخ ذكرهم كانوا من الأجواد . وهذا هو مذهب المتنبى نفسه ، فانه لم يصف رجلاً بالشجاعة إلا وقرن بها الكرم ، ولا مدح أحداً بالكرم إلا وأردفه بالشجاعة ، وذلك لايمانه بانهما خلتان لاتنفك إحداهما عن الأخرى . وقد راجعت شعره فى نفسه فرأيته افتخر بالشجاعة والبطش وتهديد الناس

والازدراء بحوادث الدهر ولم ينسب مع شيء من ذلك لنفسه كرماً أوافتخر بجود . فعلمت أنه إنما وصف نفسه بما وصفها ليرهب الذين يخالهم من أعدائه . وإني لنفاسة هذا البحث ، سأذكر لك جميع ماقاله فى هذا المعنى ، لتعرف مقدرة المتنبي فى القول ، ولتقر بأن الدهر كان راوية شعره بحق

قال فى شجاع بن محمد الطائى :

أعطى فقلت لجوده مايقتنى * وسطا فقلت لسيفه مايولد (١)

ففى صدر البيت وصفة بمنتهى الكرم، وفى الشطر الثانى بمنتهى الشجاعة

وقال فى محمد بن زريق :

إن حلّ فارقت الخزائن ماله * أوسار فارقت الجسوم الروسا(٢)

يعنى إن أقام فرق أمواله ، وإن غزا أكثر من القتلى .

وفى على بن حمدان المرى :

حسن فى عيون أعدائه أقبح من ضيفه رأته السوام(٣)

أى هو حسن ، ولكنه فى عيون أعدائه أقبح من ضيفه فى عيون إبله وغنمه ، لأنها إذا رأت ضيفاً أيقنت بأنها مذبوحة له وهذا وصف بالكرم . وكذلك أعداؤه إذا رأوه أيقنوا بأنهم مقتولون ، وهذا وصف بالشجاعة

وفى عبدالله بن يحيى :

إلى ليث حرب يلحم الليث سيفه * وبحر ندى فى موجه البحر يغرق(٤)

وفى الحسن بن اسحق :

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى * يرجّى الحيا منه وتخشى الصواعق (٥)

وفيه أيضاً :

---

(١) يقتنى ـ يدخر ، وسطا ـ غزا ، أى مايدخره الاعداء سيأخذه منهم ويجود به ، ومايلدونه يكون لسيفه (٢) الجسوم ـ الاجسام (٣) السوام جمع سائمة ، وهى الماشية التى تترك لتتذبح للأضياف (٤) يلحم أى يجعله لحماً (٥) الجون ـ القاتم فانه يكون شديد المطر مع نزول الصواعق ، ومثل هذا لايشاهد عادة فى جو مصر

كأنك فى الاعطاء للمال مبغض * وفى كل حرب للمنية عاشق

وفى محمد بن عبد الله العلوى :

وأرهبَ حتى لو تأمل درعه * جرَت جزَعاً من غير نار ولا فحم

وجاد فلولا جوده غير شارب * لقلت كريم هيجته ابنةُ الكرم

أى أنه يخيف من ينظر اليه ، فلو نظر الى درعه متأملاً وهى من الفولاذ الصلب لذابت خوفاً منه ، وقد جاد جود الثمل فأعطى ؛ عطاءَ من لا يعرف لما فى يديه قيمة .

وفى محمد بن الحسن وقومه :

هم المحسنون الكرَّ فى حومة الوغى * وأحسن منه كرُّهم فى المكارم(١)

وفى طاهر بن الحسين :

فتًى علمته نفسه وجدوده * قراعَ العوالى وابتذالَ الرغائب(٢)

وفى أبى العشائر :

مايجيل الطرف إلاَّ حمدته * جهدها الأيدى وذمته الرقاب(٣)

مابه قتل أعاديه ولكن * يتقى إخلاف ماترجو الذئاب

فله هيبة من لايرتجىَ * وله جود مرجىٌّ لايهاب

وفى المغيث بن على :

عمرُ العدو إذا لاقاه فى رَهَجٍ * أقل من عمر مايحوى إذاوهبا (٤)

توَّقه فمتى ماشئت تبلوَه * فكن معاديه أو كن له نشبا(٥)

تحلو مذاقته حتى إذا غضبا * حالت فلو قطرت فى الماءماشربا

ولا يرد بفيه كف سائله * عن نفسه ويرد الجحفل اللجبا (٦)

وفى على بن محمد بن سنان :

أشد من الرياح الهوج بطشاً * وأسرع فى الندى منها هبوبا (٧)

---

(١) الكر الهجوم، والوغى ـ الحرب (٢) العوالى ـ الرماح (٣) وصفه فى كل بيت منها بالكرم والشجاعة كما ترى (٤) الرهج ـ الغبار ومراده الحرب (٥) النشب المال يريد يقتل عدوه ويفرق أمواله (٦) الجحفل ـ اللجب هو الجيش الذى يسمع منه دوى أصوات الأبطال وصهيل الخيل لكثرته (٧) الرياح ـ الهوج الزوابع

وفى على بن منصور :

ملك سنان قناته وبنانه * يتباريان دماً وعرفاً ساكبا (١)

هذا الذى أفنى النضار مواهباً * وعداه قتلاً والزمان تجاربا (٢)

وفى أحمد بن عمران :

ليس التعجب من مواهب ماله * بل من سلامتها إلى أو قاتها

عجباً له حفظ العنان بأنمل * ماحفظها الأشياء من عاداتها

وفى عبد الواحد بن العباس :

متبسماً لعفاته عن واضح * تغشى لوامعه البروق اللمعا

متكشفاً لعداته عن سطوة * لوحكّ منكبها السماء لزعزعا

نفس لها خلقُ الزمان لأنه * مفنى النفوس مفرّقٌ ماجمعا

ويدٌ لها كرم الغمام لأنه * يسقى العمارة والمكان البلقعا

وفى سيف الدولة :

تالله ما علم امرؤ لولا كم * كيف السخاء وكيف ضرب الهام (٣)

وفى كافور :

كرمٌ فى شجاعة وذكاءٌ * فى بهاء وقدرة فى وفاء

وفى أبى شجاع فاتك :

لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يفقر والاقدام قتال

أنظر كيف أقام السيادة هنا على ركنين اثنين وهما « الشجاعة والكرم »

وقال فى الأمير دلّير :

ومادام دلير يهز حسامه * فلا ناب فى الدنيا لليث ولا شبل (٤)

ومادام دلير يقلب كفه * فلا خلق من دعوى المكارم فى حل

فهذا قول المتنبى فى الشجعان قرن فى مدحهم الشجاعة بالكرم وكذلك قرن أيضاً البخل بالجبن تأكيداً على أن الشجاع لايكون إلا كريما .

---

(١) السنان ـ نصل الرمح والبنان الاصبع يريد الكف (٢) النضار الذهب

(٣) الهام ـ الرؤوس (٤) الليث ـ الاسد والشبل ـ ولده

قال فى قصيدة مدح بها عبد الواحد بن العباس :

بنفسى الخيال الزائرى بعد هجعة * وقوله لى بعدنا الغمض تطعم

سلام فلولا البخل والجبن عنده * لقلت أبو حفص علينا المسلم

وقال فى بدر بن عمار ، وقد ضربت له خيمة على الطريق فجلس فيها يعطى الناس :

قالوا ألم تكفه سماحته * حتى بنى بيته على الطرق

فقلت إن الفتى شجاعته * تريه فى الشح صورة الفرق (١)

فاعترف بأن الشجاع يرى صورة الخوف فى البخل .

وفى سيف الدولة :

هو الشجاع يُعد البخل من جبن * هو الجواد يعد الجبن من بخل

وفيه منها :

من تغلب الغالبين الناس منصبه * ومن عدىٍّ أعادى الجبن والبخل

فملازمة المتنبى لذكر الكرم مع الشجاعة فى جميع مدائحه ؛ وذكر البخل مع الجبن ؛ دليل على أن الشجاعة والكرم ندان لا يفترقان . وذلك بديهى ، لأن الشجاعة بذل النفس وهى أغلى وأعز من المال فكيف يبخل بماله من يجود بمهجته ؟

فتبين لنا مما تقدم أن المتنبى ليس بالشجاع الذى ينال السيادة بشجاعته

ثالثاً

هل كان المتنبى حازماً ؟

إن ماجهر به المتنبى من العداء للناس فى الوقت الذى كان فيه محتاجاً الى ودّهم ، وما ألح به على كافور من الرجاء ليكون عاملاً له على احدى الولايات فى كل قصائده التى مدحه بها حتى حمله على الشك فى اخلاصه ؛ كل ذلك يدل على خلوه من الحزم وفضلاً عن هذا فان المتنبى قد ندم مراراً على أمور صدرت منه . واذا تأملت قوله :

---

(١) الشح ـ البخل والفرق بالتحريك الخوف

لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب * فكل بعيدا لهم فيها معذب

وقوله :

شرُّ البلاد بلاد لا صديق بها * وشرما يكسب الانسان مايصم

وقوله :

واذا كانت النفوس كبارًا * تعبت فى مرادها الأجسام

وقوله :

وما الدهر أهلاً أن تؤمل عنده * حياةً وأن تشتاق فيه الى النسل

وجدتها أسفاً على ما لحقه من الندم على تلك الحملات التى كان يحملها على الناس ؛ فكانت سبباً لتكثير أعدائه وحجاباً بينه وبين صفائه ، ومن أقوى موانع رجائه ؛ وليس أدلّ على خلوه من الحزم من قصيدته التى قالها فى مصر حينما بلغه بأن قوماً نعوه فى مجلس سيف الدولة ، وهى قوله :

بم التعلل لا أهل ولا وطن * ولا نديم ولا كاس ولا سكن

وفيها يقول :

رأيتكم لايصون العرضَ جاركم * ولايدرُّ على مرعاكم اللبن

جزاء كل قريب منكم ملل * وحظ كل محب منكم ضغن (١)

وتغضبون على من نال رفدكم * حتى يعاقبه التنغيص والمنن (٢)

سهرت بعد رحيلى وحشةً لكم * ثم استمر مريرى وارعوى الوسن (٣)

وإن بليت بود مثل ودكم * فانى بفراق مثله قمن (٤)

فقد هجاها سيف الدولة ونسبه لسوء الجوار وأنه يمن على من يحسن اليه . ثم لما غضب من كافور وندم ندامة الكسعى ، وكتب لسيف الدولة يكفر عن هذه الخطيئة بقوله :

---

(١) ضغن جمع ضغينة وهى الحقد (٢) المنن التذكير بالعطاء ويذم لأنه يؤذى السائل (٣) يريد بقوله ارعوى الوسن أى طاب له النوم وذهب الارق (٤) قمن أى جدير

فارقتكم فاذا ما كان عندكم * قبل الفراق أذىً بعد الفراق يد (١)

اذا تذكرت مابيني وبينكم * أعان قلبي على الشوق الذى أجد

ولكن لات حين مندم فقدكان خجل المتنبي من سيف الدولة بسبب هذه القصيدة أكبر مانع من رحيله اليه .

وقد اعترف المتنبى على نفسه بانه غير حازم فى قوله يذم كافوراً ويظهر ندمه على فراق سيف الدولة :

عثرت بسيرى نحو مصر فلا لعاً * بها ولعاً بالسير عنها ولاعثرا (٢)

وفارقت خير الناس قاصد شرهم * وأكرمهم طرًّا لأ لأمهم طرًّا

فعاقبنى المخصىُّ بالغدر جازياً * لأن رحيلى كان عن حلب غدرًا

وما كنت الافائل الرأى لم أعن

بحزم ولا استصحبت فى وجهتى حِجْرا (٣)

وليس وراء هذا دليل على ان المتنبى لم يكن حازماً

رابعاً

هل كان المتنبى فى عصبية ؟

لم يكن المتنبى فى عصبية ذات شكيمة ، ولم يكن فى قومه على ضعف شأنهم مطاعاً ، ولم يرفعهم بشعره كما فعل غيره .

نعم قال فيهم :

وانى لمن قوم كأن نفوسهم * بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

ولكن هذا وصف لهم بشدة الكبرياء فقط وليس دليلاً على مجدهم . وفوق ذلك فقد أنكرهم فى مواطن كثيرة ، كقوله :

ولست بقانع من كل فضل * بأن أعزى إلى جد همام

---

(١) يقول انّ ما كنت أحسبه منكم أذى صرت أحسبه كرماً وصنيعة بقياسه الى معاملة غيركم (٢) فلالعاً ـ أى فلا كرامة (٣) فائل الرأى سخيفه حجراً أى عقلا قال تعالى (لذى حجر)

وقوله لمن عاب نسبه

انا ابن من بعضه يفوق أبا البا * حث والنجل بعض من نجله (١)
وانما يذكر الجدود لهم * من نفروه وأنفذوا حيله (٢)
فخراً لعضب أروح مشتمله * وسمهرى أروح معتقله (٣)

وقوله لمن جهل نسبه :

جهلونى وان عمرت قليلاً * نسبتنى لهم صدور الرماح

لا بقومى شرفت بل شرفوانى * وبنفسى فخرت لا بجدودى

وان عمرت جعلت الحرب والدة * والسمهرى أخاً والمشرفىّ أبا

وقوله يرثى أمه :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد * لكان أباك الضخم كونك لى أما

فأبان لنا بهذا أنه غير مخول أيضاً .

ومن هذا تعلم أن المتنبى لم يكن ذا عصبية يؤبه لها، ولم ينتسب الا الى نفسه وسلاحه وأنه كان وحيداً بين قومه كما يقول :

وهكذا كنت فى أهلى وفى وطنى * ان النفيس غريب أينما كانا

خامساً

هل كان المتنبى جريئا ؟

نعم كان المتنبى جريئاً بلسانه ، وأما بفعله فليس له الا ادعاء النبوة وسرعان ماخذل وانفض الناس من حوله .

سادساً

هل كان المتنبى من ذوى النجدة ؟

---

(١) يقول انا ابن من ابنه خير من الباحث عن نسبي يريد الافتخار بنفسه فقط
(٢) نفروه — قهروه بالفخر (٣) العضب السيف

كلا . بل كان أشد الناس كرهاً للناس ، كما رأيت فى طور بؤسه . ومن كان هذا ظنه بهم فلا يرجى منه النجدة لأحدٍ منهم

سابعاً

هل كان المتنبى عفيفاً ؟

نعم ـ كانت للمتنبى نفس أبية تقتضيها كبرياؤه . وله فى العفة كلمات ليس لغيره مثلها . وهو أول من ثأر لنفسه من الهوى بقوله :

وقد استقدت من الهوى وأذقته * من عفتى ماذقت من بلباله (١)

وأول من عف يقظةً وحلماً ، بقوله عن نفسه :

يرد يداً عن ثوبها وهو قادر * ويعصى الهوى فى طيفها وهو راقد (٢)

ومن فرائده فى العفة قوله :

وترى المروءة والفتوة والأبو * ة فىَّ كل مليحةٍ ضرّاتها

هن الثلاث الما نعاتى لذتى * فى خلوتى لا الخوف من تبعاتها (٣)

ومن محاسنه فيها

تقولين ما فى الناس مثلك عاشق * جدى مثل من أحببته تجدى مثلى (٤)

محب كنى بالبيض عن مرهفاته * وبالحسن فى أجسامهن عن الصقل (٥)

وبالسمر عن سمر القنا غير أننى * جناها أحبائى وأطرافها رسلى (٦)

عدمت فؤاداً لم تبت فيه فضلة * لغير الثنايا الغر والحدق النجل (٧)

ولكن العفة وحدها لا تكفى لما أراد

فمما تقدم نقر بأن فراسة كافور صدقت فى المتنبى . وانه ليس أهلاً للولاية

---

(١) استقدت من القود وهو قتل النفس بالنفس ، والبلبال اختلاط العقل (٢) يريد بثوبها جسمها وطيفها خيالها فى النوم (٣) تبعاتها مايترتب عليها من الاثم (٤) (جدى) فعل امر من وجد (٥) المرهفات السيوف (٦) سمر القنا الرماح (٧) الثنايا الغر البيضاء . والحدق النجل العيون الواسعة يقول عدمت القلب الذى لاشغل له بغير الحب

القسم الرابع من حياة المتنبي

طور يأسه

لما استيأس المتنبي من كافور ، صدمت الخيبة آماله صدمةً بددتها ، وسرى أثرها إلى أخلاقه فبدلها ، وغشيه فى بدء أمره شيء من النسك فقال تلك القطعة البديعة التى تعد من فرائد الحكمة وهى :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا * وعناهم من شأنه ماعنانا (١)
وتولوا بغصة كلهم منه وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه ولكن تكدر الاحسانا
وكأنا لم يرض فينا بريب الدهر حتى أعانه من أعانا (٢)
كلما أنبت الزمان قناة * ركب المرء فى القناة سنانا (٣)
ومراد النفوس أصغر من أن * تتعادى فيه وأن تتفانى (٤)
غير أن الفتى يلاقى المنايا * كالحات ولا يلاقى الهوانا (٥)
ولو أن الحياة تبقى لحى * لعددنا أضلنا الشجعانا (٦)
كل مالم يكن من الصعب فى الانفس سهل فيها إذا هو كانا (٧)

---

(١) عناهم — أى شغلهم ماشغلنا من حب الدنيا (٢) ريب الدهر — حوادثه يقول : لم يكتف الانسان بحوادث الدهر التى تصيب أخاه بل أعان الدهر على أخيه الانسان (٣) القناة الرمح يقول : كلما نبت رمح ركب الانسان فيه نصلا ليقتل به أخاه الانسان (٤) يريد أن مطلوب النفوس من الدنيا أحقر من الوسائل التى نعدها له وهى تقاتلنا وتعادينا (٥) المنايا — الموت ، كالحات أى سوداء ، وهو كناية عن شدتها ويريد بالفتى كريم النفس فانه يفضل الموت عن المذلة (٦) وذلك لأن الشجعان عرضة للموت أكثر من سواهم (٧) يقول : كل شيء قبل وقوعه يصعب على النفس ، وبعد وقوعه يسهل ، لذلك ترى من يتوقع موت مريضه يكون فى غاية الجزع والقلق ولكن بعد الموت يذهب الحزن شيئاً فشيئاً حتى يعود الحزين الى حالة سروره ولذته

ولكن لم يدم نسكه إلا قليلاً حتى بدت عليه الحسرة ، وهزه الالم هزة عنيفة فارتد يهجوا كافوراً إذا خلا بنفسه ، ويمدحه اذا دخل عليه ؛ ثم هجره بعد ذلك . وعاد الى العراق .

وإنك لترى الحسرة بارزةً فى القصيدة التى قالها عند خروجه من مصر ؛ وقد احاط الألم بكل كلمة من كلماتها ؛ وكان ذلك فى يوم عيد ، والناس منهمكون فى سرورهم وهى :

عيدٌ بأية حالٍ عدت ياعيد * بما مضى ، أم لأمر منك تجديد
أما الأحبة فالبيداء دونهم * فليت دونك بيد دونها بيد (١)

ومنها :

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدى * شيئاً تتيمه عين ولا جيد (٢)
ياساقيَّ أخمرٌ فى كؤوسكما * أم فى كؤوسكما هم وتسهيد
أصخرة أنا ؟ مالى لاتحركنى * هذى المدام ولا هذى الأغاريد (٣)
إذا أردت كميت اللون صافيةً * وجدتها وحبيب النفس مفقود (٤)
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه * أنى بما أنا شاك منه محسود (٥)

وان من يسمع مدح المتنبى فى كافور يستبعد أن يقدم على هجائه ، ولكن المتنبى بعد خيبة أمله أصبح لا يبالى بشىء ؛ وانك لتعجب حين ترى انه قابل أكثر المعانى التى مدحه بها بمثلها هجاء وهى قوة فى إرادة المتنبى قد انفرد بها .

فمن ذلك قوله مؤملاً عند لقائه ، يصف الخيل التى أوصلته اليه :

تجاذب فرسان الصباح أعنةً * كأن على الاعناق منها أفاعيا (٦)
بعزم يسير الجسم فى السرج راكباً * به ويسير القلب فى الجسم ماشيا (٧)

---

(١) دونهم — أى بينى وبينهم . (٢) تتيمه — تشغله ، الجيد — العنق ، يريد بذلك أن همه صرفه عن حب الحسان . (٣) الاغاريد — الاغانى . (٤) الكميتة — حمرة فى سواد يقال : خمر كميت لذات هذا اللون . يريد انه لايتم له سرور بشىء (٥) يقول : أعجب ما لقيت من هذه الدنيا أنى أحسد على ما أشكو منه (وهو قربه من كافور .) (٦) الأعنة — ارسان الخيل ، ومراده هنا ذات الخيل . والافاعى — الحيات شبه بها الأعنة . (٧) أى كان وهو راكب يخفق قلبه من الفرح سروراً بلقاء كافور

قواصد كافورٍ توارك غيره * ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه * وخلت بياضاً خلفها ومآقيا(١)
نجوز عليها المحسنين الى الذى * نرى عنده إحسانهم والامانيا

ثم هجاه من هذا البحر والقافية بقوله :

أريك الرضى لو أخفت النفس خافيا * وما أنا عن نفسى ولا عنك راضيا
أمَيْناً واخلافاً وغدراً وخسةً * وجبناً أشخصاً لحت لى أم مخازيا(٢)
تظن ابتساماتى رجاء وغبطة * وما أنا إلا ضاحك من رجائيا

وقال فى مدحه زاعماً أنه كان يتقلب فى الأصلاب إلى عصره رجاء لقائه :

فتىً ماسرينا فى ظهور جدودنا * إلى عصره إلا نرجى التلاقيا

وفى هذا المعنى :

فلولم تكن فى مصر ماسرت نحوها * بقلب المشوق المستهام المتيم

ثم هجاه بعكس ذلك قائلا :

ما كنت أحسبنى أحيا الى زمن * يسيئنى فيه عبد وهو محمود

وكان يكنيه فى مدحه بأبى المسك ويقول فيه :

وبمسك يكنى به ليس بالمسك ولكن أريج الثناء(٣)

وجعله أيضا أبا الطيب كله بقوله :

أبا كل طيب لا ابا المسك وحده * وكل سحاب لا أخص الغواديا

بعد ذلك هجاه بضده ، فعاتب الدهر على موت فاتك (٤) ، وابقاء كافور وهو أنتن رائحة :

أبقيت أكذب كاذبٍ أبقينه * وأخذت أصدق من يقول ويسمع

---

(١) شبهه لسواده بانسان العين ، وهو أنفس من بياضها لأنه آلة الابصار .
(٢) المين ـ الكذب. ويريد بالاخلاف إخلاف الوعد .(٣) الاريج. رائحة المسك والطيب. (٤) فاتك ـ كان أميراً للفيوم مدحه المتنبي فأعطاه الف دينار ومات فاتك والمتنبي فى مصر فرثاه بقصيدة جيدة وهذان البيتان منها

وتركت أنتن ريحـــة مذمومة * وسلبت أطيب ريحـــة تتضوع

وقال فى ذمه وذم قومه بالنتن

مايقبض الموت نفساً من نفوسهم * إلا وفى يده من نتنها عود

وقال فى هذا المعنى يذمه :

وقد ضل قوم بأصنامهم * وأما بزقّ رياحٍ فلا (١)

وقال فى مدحه ذاكراً محاسن سواده حين هنّأه بدار بناها :

نزلت اذا نزلتها الدار فى أحســـن منها من السنى والسناء

حل فى منبت الرياحين منها * منبت المكرمات والآلاء (٢)

تفضح الشمس كلما ذرت الشمـــس بشمسٍ منيرة سوداء

إن فى ثوبك الذى المجد فيه * لضياء يذرى بكلّ ضياء

إنما الجلد ملبس وابيضاض النفـــس خير من ابيضاض القباء (٣)

كرم فى شجاعـــة وذكاء * فى بهاء وقـــدرة فى وفاء

من لبيض الملوك أن تبدل اللـــون بلون الاستاذ والسحناء (٤)

ثم هجاه ذاماً سواده بقوله :

العبد ليس لحرّ صالح بأخ * لو أنه فى ثياب الحر مولود

لاتشتر العبد إلا والعصا معه * ان العبيد لأنجاس مناكيد

ماكنت أحسبنى أحيا الى زمن * يسيئنى فيه عبد وهو محمود (٥)

وإن ذا الأسود المثقوب مشفره * تطيعه ذى العضاريط الرعاديد (٦)

وقال فى مدحه ذاكراً بأنه نال الملك بحق :

---

(١) الزق القربة الصغيرة يريد أن كافوراً قربة مملوءة ريحاً كريهة . يبكت بذلك الناس بطاعته وانهم أضل من عبدة الاصنام (٢) يريد بمنبت الرياحين حديقة المنزل وبمنبت المكرمات كافور (٣) القباء نوع من الثياب (٤) السحناء الهيئة

(٥) تكرر هذا البيت لضرورة ذكر مابعده (٦) العضرط الذى يخدم الناس بطعامه ، الرعديد . الجبان

وما كنت ممن أدرك الملك بالمنى * ولكن بأيام أشبن النواصيا

ثم قال فى ذمه زاعماً أنه تملك بغدره وخيانته لسيده :

أكلما اغتال عبد السوء سيده * أو خانه فله فى مصر تأييد

صار الخصى إمام الآبقين بها * فالحرُّ مستعبد والعبد معبود

وقال فى مدحه زاعماً أن الناس أطاعوه لفضله :

يقود اليه طاعة الناس فضله * ولو لم يقدها نائل وعقاب

ثم ذمه زاعماً أنهم أطاعوه لحمقهم وفساد إحساسهم :

أنوكُ من عبد ومن عرسه * من حكَّم العبد على نفسه (١)

وانما يظهر تحكيمه * تحكم الافساد فى حسه (٢)

وقال فى مدحه زاعماً أن الله جمع فيه كل معانى الفخر :

يدل بمعنى واحد كل فاخرٍ * وقد جمع الرحمن فيك المعانيا

ثم ذمه ذاكراً أنه مجموعة نقائص :

أميناً واخلافاً وغدراً وخسةً * وجبناً أشخصاً لحت لى أم مخازيا (٣)

وقال فى مدحه زاعماً انه لما دخل مصر وصل الى أعز الناس نفسا ، وأكملهم عقلاً :

حتى وصلت الى نفسٍ محجبةٍ * تلقى النفوس بفضلٍ غير محجوب

فى جسم أروع صافى العقل تضحكه * خلائق الناس إضحاك الاعاجيب (٤)

ثم قال فى ذمه بعكس ذلك :

ولم ذا بمصر من المضحكات * ولكنها ضحك كالبكا

وأسود مشفره نصفه * يقال له أنت بدر الدجى

وقال فى مدحه زاعماً أنه لعلو شأنه تجاوز قدر المدح :

---

(١) أنوك أى أحمق (٢) يريد أن اختيارهم له ملكا عليهم دل على فساد احساسهم (٣) تكرر هذا البيت للمناسبة

(٤) الاروع . الرجل الذى يعجبك حسنه

تجاوز قدر المدح حتى كأنه * بأحسن مايثنى عليه يعاب

ثم ذمه زاعماً أنه كان يمدحه حيلة لاستدرار خيره ، وأن مدحه ذم للخلائق :

وشعر مدحت به الكركدن * بين القريض وبين الرُّقى(١)

فما كان ذلك مدحاً له * ولكنه كان هجو الورى

وقال فى مدحه ، وقد فضله على ملوك الأرض :

جرى الخلف إلا فيك أنك واحد * وانك ليث والملوك ذئاب

وأن مديح الناس حق وباطل * ومدحك حق ليس فيه كذاب

إذا نلت منك الودّ فالكل هين * وكل الذى فوق التراب تراب

ولكنك الدنيا الى حبيبة * فما عنك لى إلا اليك ذهاب

ثم هجاه مدعياً بأن كونه ملكاً ، مما يقوى حجة الدهريين الذين ينكرون وجود مدبر لهذا الكون ، ويقولون لو كان له مدبر لما ملك الناس غير ساداتهم :

من أية الطرق يأتى مثلك الكرم * أين المحاجم يا كافور والجلم (٢)

جاز الألى ملكت كفاك قدرهم * فعرفوا بك أن الكلب فوقهم

يقول إن الذين ملكتهم ، تجاوزوا قدرهم فبطروا وأشروا ، فأذلهم الله بتمليك كلب عليهم ، ثم قال فيها :

ألا فتىً يورد الهندىَّ هامته * كيما تزول شكوك الناس والتهم(٣)

فانه حجة يؤذى القلوب بها * من دينه الدهر والتعطيل والقدم(٤)

---

(١) الكركدن ـ الخرتيت وهو قصير القامة واسع البطن ، ويظهر أن المتنبي رآه فى مصر لانه لايوجد فى العراق ، فشبهه به لقبح منظره ويقول كان مدحى له بين الشعر وبين الرقية . يريد أنه كان يضحك عليه بمدحه حتى يأخذ جوائزه (٢) المحاجم جمع محجم ـ وهو كأس الحجامة ، والجلم ـ المقراض « المقص » يريد أن الحجامة أليق به من الملك (٣) الهندى السيف يقول ألا يوجد من يقتله ليزول هذا الشك من الناس (٤) تعليل لطلب قتله

ما أقدر الله أن يخزى خليقته * ولا يصدق قوماً فى الذى زعموا(١)

وقال فيه وقد فضله على العرب :

ويغنيك عمّا ينسب الناس أنه * اليك تناهى المكرمات وتنسب(٢)

وأى قبيلٍ يستحقك مدحه * معد بن عدنانٍ فدتك ويعرب(٣)

ثم هجاه ذاماً جنسه :

فلا ترج الخير عند امرىء * مرت يد النخاس فى رأسه(٤)

وإن عراك الشك فى نفسه * بحالةٍ فانظر الى جنسه

فقلما يلؤم فى ثوبه * إلا الذى يلؤم فى غرسه(٥)

وقال فى مدحه زاعماً أنه أذنب فى مدح الناس قبله :

وتعذلنى فيك القوافى وهمتى * كأنى بمدح قبل مدحك مذنب

ثم هجاه زاعماً أنه كان يلهو بمدحه :

أخذت بمدحه فرأيت لهواً * مقالى للاحيمق ياحليم(٦)

فمن هذا يتبين لك مقدار ما ألمّ بالمتنبي من الألم بعد خيبة الامل . فلما ترك مصر ، وعاد الى العراق كف عما كان يجهر به من تهديد الناس . ولم تعاوده تلك الخواطر إلا مرة واحدة حينما مدح الوزير أبا الفضل بن العميد ، فجرى على لسانه عفواً قوله :

صغت السوار لكل كفٍّ بشرت * بابن العميد وكل عبدٍ كبرا

إن لم تغثنى خيله وسلاحه * فمتى أقود الى الاعادى عسكرا؟

ثم أخذ يتودد الى سيف الدولة عن بعد ، ومن قوله فيه :

من عبيدى إن عشت لى ألف كافو * رٍ ولى من نداك ريف ونيل

---

(١) يريد أن قتله يعد خزيا للدهريين وتكذيبا لزعمهم (٢) تناهى ـ تتناهى (٣) معد بن عدنان جد عرب الحجاز ، ويعرب بن قحطان ـ جد عرب اليمن . أى أنت تفدى بعرب الحجاز واليمن (٤) النخاس ـ تاجر الرقيق (٥) يريد أنه لا يلؤم فى نفسه الا من لؤم أصله . (٦) الأحميق تصغير أحمق

وقوله يهجو كافوراً . ويتملق لسيف الدولة :

أبا النتن قد قيدتنى بمواعد * مخافة نظم للفؤاد مروّع(١)

وقدّرت من فرط الجهالة أننى * أقيم على كذب رصيف مصنع(٢)

أقيم على عبد خصىٍّ منافقٍ * لئيم ردى الفعل للجود مدّع

واترك سيف الدولة الملك الرضى * كريم المحيا أروعاً وابن أروع(٣)

فتى بحره عذب ومقصده غنىً * ومرتع مرعى جوده خير مرتع

تظل إذا ماجئته الدهر آمناً * بخير مكانٍ بل بأشرف موضع

ثم صار يمدح من الأمراء من لم يسبق له مدحهم ، وأبدع ماصدر منه فى آخر أيامه قصيدته التى رثا بها أخت سيف الدولة ، وقد ختمها بأبيات اذا تأملتها وجدتها صورة ماحدث له يقصها على سيف الدولة ويدعو له بأن لا يصيبه مثلها وهى قوله :

فلا تنلك الليالى إن أيديها * اذا ضربن كسرن النبع بالغَرب(٤)

ولا يعن عدواً أنت قاهره * فأنهن يصدن الصقر بالخرب(٥)

وإن سررن بمحبوب فجعن به * وقد أتينك فى الحالين بالعجب(٦)

---

(١) مواعد ـ جمع موعد ـ أى منعتنى عن السفر لكثرة وعودك لى ، وذلك خوفاً من هجائى المقزع (٢) كذب رصيف ـ منمق كانه الصدق (٣) المحيا ـ الوجه (٤) تنلك أى تصل اليك ، ويريد بالليالى حوادثها . النبع ـ شجر قوى تصنع منه القسى . والغرب بفتح الغين والراء نبت ضعيف يقول : إن أيدى الايام تقتل القوى بالضعيف « كما فعلت بى وكسرتنى بيد وشاتى وحسادى وهم أضعف منى » (٥) الصقر طائر من الجوارح القوية ، الخرب ـ بالتحريك ذكر الحبارى وهو من أبلد الطير . يقول : ان الايام إذا أعانت ذكر الحبارى مع بلادته مكنته من صيد الصقر مع قوته كما فعلت بى (٦) فجعن به . أى أوجعن القلب بفقده . يقول : ان حالتى السرور والكدر كلاهما من عجائب الدهر

وربما احتسب الانسان غايتها * وفاجأته بأمر غير محتسب(١)
وما قضى أحد منها لبانته * ولا انتهى أرب إلا إلى أرب(٢)
تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم * إلا على شجب والخلف فى الشجب(٣)
ومن تفكر فى الدنيا ومهجته * أقامه الفكر بين العجز والتعب(٤)

بعد ذلك أخذ المتنبي يجول بين بغداد وفارس وأرجان وشيراز ثم قتل فى رمضان عام ٣٥٤ هجرية وعمره (٥١ سنة) .

سبب قتل المتنبى

كان المتنبي هجا رجلاً اسمه ضبة ، وعرض بأمه ونسائه تعريضاً أفحش فيه ، بقول : لا يطيق قلم الكاتب ان يسطره وأوله :

ما أنصف القوم ضبه * وامه الطُّرُطُبَّه

وختمها بقوله:

إن أوحشتك المعالى * فانها دار غربه
او آنستك المخازى * فانها لك نسبه
وإن عرفت مرادى * تكشفت عنك كربه
وإن جهلت مرادى * فانه بك أشبه

وكان لأم ضبة أخ يسمى فاتكاً فأصر على قتل المتنبي وصار يتتبع خطواته حتى امكنته منه الفرصة وهو عائد من شيراز فخرج عليه وقاتله . ونقل الرواة أن المتنبي همّ بالفرار من وجه فاتك فقال له غلامه مفلح : اتفر وأنت القائل

---

(١) الغاية ـ منتهى الشيء . يقول: ربما حسب المرء للأيام حساباً فتأتيه بما ليس فى حسابه كما حصل لى فقد كنت أحسب أنى أبلغ ما اتمنى من كافور فعدت بالخيبة

(٢) الدبانة والأرب معناهما الحاجة . أى لم يقض أحد من الدنيا مراده « يعزى بذلك نفسه عما لحقه من الندم والحسرة» (٣) الشجب ـ الهلاك . أى أن الناس اختلفوا فى كل شيء إلا على اهلاك بعضهم بعضا ، وهذا عين الخلاف

(٤) يقول ان من يفكر فى حياته وحال دنياه يعيش متعب القلب لأنه يعجز عن بلوغ كل أمل

الخيل والليل والبيداء تعرفنى * والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فكرّر راجعاً يقاتل خشية العار فقتل فانطبق عليه قوله :

وربما فارق الانسان مهجته * يوم الوغى غير قال خشية العار

ويقال: أن المتنبى مرّ قبل لقاء فاتك بصديق له فأخبره الرجل بعزم فاتك ، ونصحه بأن يصحب معه فى الطريق من يتقوى به ، فأبى وقال لا أرضى أن يتحدث الناس بأنى سرت فى خفارة غير سيفى فأبان له صديقه سوء رأيه فى ذلك ، فقال له المتنبى « أمن عبيد العصا (١) تخاف علىّ ؟ والله لو أن مخصرتى هذه ملقاة على شاطىء الفرات وبنو أسد معطشون لخمس ، وقد نظروا الماء كبطون الحيات ، ما جسر لهم خف ولا ظلف أن يرده ! » ثم ركب ومضى فى طريقه فلقيه فاتك ، وقتله وقتل معه ابنه محسداً وغلامه مفلحاً

وإذا فهمنا من عبارة المتنبى هذه أنه كان على ثقة من نفسه بأن فاتكا لا يقدر عليه ، فكيف نعلل عزمه على الفرار منه عند لقائه ثم سقوطه بين يديه صريعاً هو ومن معه ؟

لقد فكرت فى هذه الواقعة ملياً ، ثم تصورت أنى واقف أنظر إليها عن كثب ، فرأيت فاتكاً يقاتل المتنبى قتال المظلوم المنتقم الذى يثأر لعرضه وشرفه ؛ والمتنبى يدافع دفاع المذنب الخاطىء فعلمت ثمة من أين ظهر فاتك عليه .

فانظر كيف كان شعر المتنبى سبب ألمه مدى حياته ، أبعده عن الناس بعد ان أدناه منهم ، وقربه من الملوك ثم شرده عن مجالسهم ، ثم جره بين التيه والكبرياء إلى حتفه أمام من هو أضعف منه قوةً .

ثم انظر إلى أمله كيف كان أكبر مما تطيقه نفسه ، وفوق ما تحتمله همته ، فهلك ولم يقض وطراً مما أراد ، فأصبحت حياته موعظة لمن جاء بعده .

---

(١) عبد العصا — الرجل الذى لا تستقيم حاله إلا بالضرب والأذى . والمخصرة — العصا القصيرة ، الفرات — نهر فى العراق يرده بنو أسد وهم قوم فاتك ، معطشون لخمس — أى مضى عليهم خمسة أيام لم يذوقوا فيها ماء ، وقوله كبطون الحيات — يريد تدفق الماء وما يحدثه من التعاريج ، ويريد بالخف والظلف — الأبل والغنم .

ولو أن المتنبي قنع بحياة شاعر لعاش من أسعد الشعراء حظاً ولكنه استسلم لنفسه فأغوته ، ووقف تحت قدميها فأذلته . وصورت له مع هذه الآلام أنها رفعته فوق الأنام ، فجرأته بذلك على أن يقول :

واقفاً تحت اخمصى قدر نفسى * واقفاً تحت أخمصىّ الأنام

وقد اتبع هواها فأتعبت جسمه ، وشردت نومه ، وكلفته ما ناء به من العناء وحال بينه وبين الهناء حتى اضطر لأن يقول إقراراً بما ألم به من الألم :

وإذا كانت النفوس كباراً * تعبت فى مرادها الأجسام

وتراه فى ظاهر هذا البيت يفتخر ، وفى باطنه يكاد ينتحر .

ومن غرائب الاتفاق انى رأيت المتنبى افتتح مدح كافور بقوله يخاطب نفسه :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا * وحسب المنايا أن يكن أمانيا

فكان ذلك طيرة لداء آماله التى لم تشف فى حياته بنيل ماأراد . ورأيته ختم رجاءه من كافور بكلمة الخيبة فى قوله :

وأعلم قوماً خالفونى وشرقوا * وغربت انى قد ظفرت « وخابوا »

وبالخيبة رجع من عنده

وأنه قال فى آخر قصيدة نظمها يمدح بها حاكم شيراز عند وداعه :

أروح وقد ختمت على فؤادى * بحبك أن يحل به سواكا

فلم يمدح أحداً بعده .

وفيها يقول :

وانّى شئتِ ياطرقى فكونى * أذاةً أو نجاةً أو هلاكا

ثم سار فى طريقه فكانت هلاكاً ، فسبحان من له البقاء المطلق

(انتهى مبحث حياة المتنبي بين الألم والأمل)

احمد سعيد البغدادى

أمثال المتنبي

١٣٥١ يوسف أحمد

أتى المتنبي في القريض بخطة * لها منزل في العالمين جليل
هي المثل المختار من كل حكمة * بمحكم قولٍ ليس فيه فضول
لئن كثرت أمثاله عند عدها * فأمثاله في مثلهن قليل

لاشك ان الأمثال التي جاء بها المتنبي منثورةً في ديوانه ، لم يأت بمثلها شاعر قبله ، وقد وقف أمامها مبهوتاً كل شاعر جاء بعده ، فهو فيها واحد عديم المثال .

وأمثال المتنبي بنفاسة معانيها ، وبلاغة تركيبها ، وسلاسة ألفاظها ، ونبل مغزاها ، تعد من آيات البيان عند الأدباء ، ومعجزات البديع عند الشعراء ، وفواتح القول عند الخطباء ، وشواهد البلاغة عند العلماء ، فكل مثلٍ منها إما قاعدة صحيحة في الاخلاق الفاضلة ، وإما حكمة بالغة تخضع النفس لقانونها .

وأي رجل يسمع قول المتنبي :

وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى * ولا الأمن الا ما رآه الفتى أمنا

أو قوله :

إذا قل عزمي عن مدىً خوف بعده * فأقرب شيء ممكن لم يجد عزما

ثم يحجم عن اقتحام مضمار هذه الحياة خائضاً جليل الاعمال ؟ وأي مغرور يصغى لقول المتنبي :

بئس الليالي سهدت من طربٍ * شوقاً إلى من يبيت يرقدها

أو قوله :

ضنىً في الهوى كالسم في الشهد كامناً * لذذت به جهلاً وفي اللذة الحتف

ولا يعود إلى رشده ؟

وقد بلغت أمثال المتنبي في عالم الأدب غاية ليس وراءها مطّلع لشاعر ، فقد عني بجمعها طائفة من أكابر أهل الفضل كأبي العلاء المعري فيلسوف

الشرق ، والصاحب بن عباد إمام أهل الأدب ، وغيرهما ، غير أن أسفارهم أصبحت عزيزة الوجود .

ولقد رأيت الحاجة ماسة إلى نشرها لأنها دروس من الحكمة نافعة فى الحث على العمل ومكارم الأخلاق : كالأقدام ، والصبر ، وكرامة النفس ، والعفة ، وحسن المعاملة وغير ذلك ،

فقطفتها من ديوانه ثم رتبتها ، وشرحت غامض ألفاظها . وجلوت مغزاها ، فقربت بذلك بعيدها ، وجعلتها فى متناول من شاء من طلاب الأدب خدمة للفضيلة . وما توفيقى إلا بالله ،

سمير

obeikandl.com